

سُورَةُ الْحَجِّم

حِينَ يَحْفَظُ اللَّهُ كَلِمَتَهُ،
وَيَكْشِفُ هَشَاشَةَ الْإِنْسَانِ
رَحْلَةً تَدَبُّرِيَّةً مِنْ غُرُورِ الْمَادَّةِ إِلَى يَقِينِ الْعِبَادَةِ



رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْحَجَرِ

حِينَ يَحْفَظُ اللَّهُ كَلِمَتَهُ، وَيَكْشِفُ هَشَاشَةَ
الْإِنْسَانِ

رَحْلَةً تَدْبُرِيَّةً مِنْ غُرُورِ الْمَادَّةِ إِلَى يَقِينِ الْعِبَادَةِ

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة تمهيدية

الكلمة المحفوظة والحضارة الهشة

ليست سورة الحجر سردًا لخرائب أمةٍ انطفأت في ركن بعيد من التاريخ، ولا جولةً بين جبال نُحِتَت فيها البيوت ثم هجرها أصحابها؛ إنها سورةٌ تقف بالإنسان أمام السؤال الذي يطارده في كل عصر: أين يوجد الأمان حقًا؟

أفي الحجر الذي يشتد؟ أم في المال الذي يتكاثر؟ أم في القوة التي تحرسها الجيوش؟ أم في العلم الذي تنتسح به قدرة الإنسان على إخضاع المادة؟

لقد امتلاك أصحاب الحجر أسبابًا تُغري بالاطمئنان. نحتوا مساكنهم في قلب الجبال، فلم تكن جدران بيوتهم ألواحًا يمكن أن تعبت بها الريح، بل كانت امتدادًا للصخر نفسه. رأوا الجبل قائمًا قبلهم، وظنوا أن وجودهم في جوفه يمنحهم شيئًا من بقائه:

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾.

غير أن الشعور بالأمان لا يعني امتلاك الأمان. فقد يكون الإنسان أكثر خوفًا حين يفرط في بناء الأسوار؛ لأنه يكشف بذلك مقدار ما يخشاه في الداخل. وقد يحكم إغلاق الأبواب، ثم يترك قلبه

مفتوحًا للكبر والغفلة والإعراض. وحين جاءت الصيحة، لم تفاوض صلابة الجبال، ولم تمنحهم مهارتهم الهندسية لحظة إضافية:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾.

تلك هي المفارقة التي تتشع من اسم السورة: **دخلوا في الحجر، ولم يدخلوا في الحفظ.**

وفي مطلع السورة يعلن الله حفظ القرآن:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

فكان السورة تقيم ميزانًا بين حقيقتين: حجرٌ بالغ الصلابة لم يحفظ أصحابه، وذكرٌ استهزأ به المكذبون فحفظه الله. مضى المستهزون وبقي القرآن، وسقط أصحاب الجبال وبقيت جبالهم شاهدًا عليهم. لم يكن البقاء للأشد صلابةً في أعين الناس، بل لما تعلقت به إرادة الله.

ومن هنا تتحول السورة إلى نقدٍ عميق لوهم الإنسان المادي؛ ذلك الوهم الذي يجعله يطمئن إلى ما تراه العين، ويستبعد قوة ما لا تلمسه اليد. يثق بالجدار أكثر مما يثق بوعد الله، وبالرصيد أكثر مما يثق بخزائنه، وبالنفوذ أكثر مما يثق بعدله. غير أن ما يسميه الإنسان ضمانًا قد يكون قشرةً رقيقةً أمام قَدَرٍ لم يضعه في حسابه.

وتأخذنا السورة من القرآن المحفوظ إلى السماء المحفوظة، ومن زينة البروج إلى امتداد الأرض ورواسيها، ومن إنبات الأشياء بموازينها إلى الخزائن التي لا تنفذ:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾.

إنها آية تفتح في جدار القلق نافذةً واسعة. فما تأخر عن الإنسان لم يتأخر لنفاد خزائن الله، وما نزل إلى غيره لم يُنتزع من نصيبه. كل شيء يأتي بقدر؛ في موعد يعلمه الله، وبمقدار تحتمله الحكمة. وقد يكون المنع حفظاً، والتأخير تهيئةً، والقلّة نجاةً من فتنة لم يرها صاحبها.

ثم تعيد السورة الإنسان إلى بدايته: صلصالاً من حمأ مسنون. تضع التراب أمام عين المتكبر حتى يهدأ غروره، وتذكّره بأن شرفه لم يأت من مادته، وإنما من تكريم الله له واستعداده للعبودية. وفي الجهة الأخرى يقف إبليس، مخلوقاً من النار، فيقيس الفضل بمادة الخلق، ويحتقر آدم لأنه من طين.

لقد رأى إبليس أصل آدم، ولم ير تكريم الله له؛ وحين أمر بالسجود نظر إلى آدم، ولم ينظر إلى الأمر. ومن هنا بدأ انحرافه: جعل رأيه فوق الأمر، ثم صنع من كبره حجة.

وما يزال الإنسان يكرر الخطأ نفسه كلما احتقر غيره بسبب نسب أو لون أو منطقة أو فقر، وكلما رفض الحق لأنه جاء على لسان من لا يعجبه. فالكبر لا يمنع صاحبه من رؤية الحقيقة دائماً، ولكنه يمنعه من الانحناء لها.

ثم يعلن إبليس خطته:

﴿لَأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

فالشر لا يدخل النفس غالباً باسمه الصريح، بل يحتاج إلى زينة. يُسمَّى الظلم حزمًا، والحسد نقدًا، والرياء حرصًا على الصورة، والاستعلاء دفاعًا عن الكرامة. يري الشيطان الإنسان أول المعصية ويحجب نهايتها، ويعرض اللذة ويخفي الحسرة. لكن سلطانه لا يبلغ عباد الله المخلصين؛ لأن الإخلاص ينزع عن الأشياء زينتها الكاذبة، ويعيدها إلى ميزان الحق.

وبين مشاهد الوعيد تفتح السورة باب الرحمة على سعيته:

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

إنها لا تريد قلبًا يائسًا من المغفرة، ولا قلبًا مغترًا بالإمهال؛ بل قلبًا يسير إلى الله بين رجاء يحمله وخوف يحرسه. فالمغفرة باب العائدين، وليست ستارًا للمصرّين؛ والعذاب عدلٌ يطمئن المظلوم إلى أن هذا الوجود لم يُترك للفوضى.

ثم تأتي قصة إبراهيم عليه السلام لتعلن أن رحمة الله لا تحبسها مقاييس العمر؛ يُبشِّرُ بالسلام بعدما مسه الكبر. وتأتي قصة لوط عليه السلام لتكشف لحظة الانهيار الأخلاقي حين لا يعود المجتمع يمارس المنكر خفيةً، بل يستبشر به، ويخاصم من ينكره، ويضيق على من يريد حماية الطهارة.

هناك يصبح الخروج نجاة، ويأتي الأمر الحاسم:

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.

فبعض النجاة يحتاج إلى رحيل كامل؛ أن يغادر الإنسان المعصية بقلبه وجسده، وألا يظل ملتفتاً إلى الشيء الذي أنقذه الله منه. فما أكثر من خرجت أقدامهم من الماضي، وبقيت أرواحهم مقيمةً فيه!

ثم تصل السورة إلى أصحاب الحجر، فتضع الحضارة أمام امتحانها الحقيقي. استطاعوا أن ينحتوا الجبال، ولم يستطيعوا أن يهذبوا نفوسهم. تقدم عمرانهم، وتأخر إنسانهم. وهذه مأساة تتكرر كلما اتسعت قدرة الإنسان على الأشياء، وضافت قدرته على نفسه؛ حين يصنع الأدوات العظيمة، ولا يعرف لأي غاية يستخدمها.

فليست الحضارة في علو البناء وحده، بل في علو الإنسان الذي يسكنه. وما قيمة بيت يصمد أمام العواصف إذا كان ساكنه ينهار أمام شهوته؟

وفي خاتمة السورة ينتقل الخطاب من مصائر الأمم إلى قلب النبي ﷺ:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

إنه اعتراف قرآني بجراح الكلمة؛ فصاحب الرسالة يتألم، والقلب المؤمن ليس حَجَرًا. لكن الله لا يترك الصدر في ضيقه، بل يده على طريق الاتساع:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

بدأت مأساة إبليس حين أبى أن يكون مع الساجدين، وانتهى علاج ضيق الصدر بأن يكون النبي ﷺ من الساجدين. فالسجود هو الحد الفاصل بين كبر يسقط صاحبه وعبودية ترفعه. حين تلامس الجبهة الأرض لله، تتحرر الروح من أثقالها، ويعرف الإنسان أنه ليس مضطراً إلى حمل العالم وحده.

ثم تأتي الكلمة الأخيرة، جامعةً الطريق كله:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

فالعبد ليس مرحلةً تنتهي، بل رفقة العمر حتى الموت. يعبد المؤمن ربه حين يفهم الحكمة وحين تخفى عنه، وحين تتفتح الأبواب وحين تضيق المسالك، وحين يصفق له الناس وحين يستهزئون به. لا يتغير ربه بتغير أحواله، فلا ينبغي أن تتغير وجهته.

وهذا الكتاب رحلة تأملية في آيات سورة الحجر، تنطلق من معانيها الصحيحة وسياقها، ثم تتلمس هداياتها النفسية والإنسانية والحضارية. غايته أن نقرأ السورة لا بوصفها خبراً عن قوم مضوا، بل مرآة تكشف ما في داخلنا من أوهام القوة، ومداخل الكبر، وسُكْر الأمل، وحاجة القلب إلى الحفظ.

وسنكتشف في نهاية الرحلة أن الإنسان قد يبني لنفسه ألف حصن، لكنه لن يأمن حتى يأوي إلى الله؛ وأن الحجر مهما اشتد لا يحفظ قلباً أعرض عن ربه، بينما القلب الضعيف إذا اعتصم بالوحي وسجد لله صار في حصنٍ لا تراه الأبصار، ولكنه أثبت من الجبال.

على أعتاب السورة

ليست سورة الحجر حديثًا عن أمة مضت، ولا عن صخرة نحتها قوم ثم غابوا في تجاويف التاريخ؛ إنها حديث عن الإنسان حين يشتدُّ به وهمُّ القوة، حتى يظنَّ أن الجدار الذي بناه يستطيع أن يمنع عنه قَدْر الله، وأن الحضارة التي نحتها في الصخر تستطيع أن تتحت له خلودًا خارج مشيئة الله.

إنها سورة الأشياء التي تبدو ثابتة ثم تتهاوى، والكلمة التي تبدو محاصرة ثم تبقى.

جبالٌ منحوتة، ومدائنٌ محصَّنة، وأموالٌ ممتدة، وأعمارٌ مؤجَّلة؛ ثم لا يبقى من ذلك كلِّه إلا العبرة. وفي الجهة الأخرى: قرآنٌ تسخر منه الألسنة، ورسولٌ يؤذيه المكذبون، ومؤمنون يبدون غرباء في زحام الباطل؛ ثم يعلن الله أن كلمته محفوظة، وأن رسوله مكفيٌّ، وأن المتقين هم الوارثون الحقيقيون للأمن والسكينة والخلود.

سُمِّيت السورة باسم موضع ظنَّ أهله أنهم أحسنوا الاحتماء فيه؛ فكأن اسمها يحمل منذ البدء مفارقتها الكبرى: ليس المهم أن تكون في الحجر، بل أن تكون في الحِفظ. وليس المهم أن تُحاط بالصخور، بل أن يحيطك الله برحمته. فكم من إنسان عاش خلف أبواب مغلقة ولم يأمن، وكم من مؤمن سار في أرض مكشوفة وكان اليقين سورَه الذي لا يُقْتَحَم!

وتمتد السورة بين حفظين عظيمين: حفظ القرآن في أولها، وحفظ قلب الرسول ﷺ في آخرها. ففي البدء يقول الله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

وفي خاتمتها يعلم نبيه كيف يحفظ قلبه من ضيق التكذيب وأذى المستهزئين:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٢﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾

وبين الحفظين تتكشف قصة الإنسان كلها: من أين جاء؟ ولماذا يتكبر؟ وكيف يتسلل الشيطان إلى ضعفه؟ وما الذي يحول بينه وبين غواية الطريق؟ ولماذا لا تنفع الآيات قلباً قرر ألا يؤمن؟ وكيف يُفتح باب الرجاء أمام المذنبين، ثم يُقام إلى جواره باب الخوف حتى لا تتحول الرحمة إلى غفلة؟

إن هذه السورة لا تأخذنا إلى آثار ثمود لنتفرج على خرائبهم؛ بل تأخذنا إلى الخرائب الكامنة في النفس: إلى الكبر حين ينحت منطقته في صخر الأنا، وإلى الغرور حين يبني بيوته في جبال الأسباب، وإلى التسويف حين يظن الإنسان أن العذاب لا يأتي إلا الآخرين.

وسنقرأها قراءةً تحفظ للآيات معانيها التي يدل عليها لسانها وسياقها، ثم نصغي إلى أصدائها في النفس والحياة؛ فلا ندعي

للخواطر عصمة التفسير، ولا نحمل النص ما لا يحتمل، وإنما
نقترب من نوره بقلوب مفتوحة، لعل الآية لا تمر على أبصارنا
فحسب، بل تعبر إلى أعماقنا، وتعيد ترتيب رؤيتنا إلى الله والكون
والإنسان والمصير.

الفصل الأول

قِرْآنٌ يَعْبُرُ سُخْرِيَّةَ الزَّمَنِ

تأملات في الآيات (9-1)

﴿الرَّ ٢ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾

تبدأ السورة بالحروف المقطعة: ﴿الر﴾، حروفٌ يعرفها العرب، وينطقون بها، ويبنون منها كلامهم؛ ولكن القرآن الذي تكوّن من جنس هذه الحروف خرج عن قدرتهم، كما خُلق الإنسان من تراب ثم صار سرًّا أعجز من التراب.

إن المادة قد تكون مألوفة، ولكن الصنعة الإلهية مدهشة. فالناس جميعًا يملكون الحروف، وليس كل كلام قرآنًا؛ كما أن البشر جميعًا يملكون الأيام، وليس كل عمر رسالة. ليست قيمة الأشياء في مادتها وحدها، بل في الروح التي تُودع فيها، والغاية التي تتجه إليها.

ثم يأتي الوصف: ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾.

إنه كتاب يكشف ولا يموّه، يهدي ولا يضلّل، يضع الإنسان أمام الحقيقة بلا أقنعة. غير أن البيان لا يعني أن كل قلب سيبصر؛ فقد تكون الشمس ساطعة، ويغمض الإنسان عينيه ثم يشكو الظلام. ليست مشكلة المكذبين دائمًا في غموض الدليل، بل قد

تكون في النفوس التي لا تريد للحق أن يكون حقًّا؛ لأنه إذا ظهر الحق طالبا أن تتغير، وهي تريد حقيقة تمنحها الطمأنينة من غير أن تسلبها الهوى.

القرآن مبين، ولكن الأهواء تُعَقِّد ما أبانه الله. يقول للإنسان: أنت عبد، فيخترع الإنسان فلسفات طويلة ليهرب من العبودية. يقول له: ستموت، فيبني حول الموت ضجيجًا يمنعه من سماعه. يقول له: إن لهذا الكون ربًّا، فيفتش عن تفسير لكل شيء إلا أن يعترف بالمنعم.

فالقرآن لا يضيف حجابًا إلى الوجود، بل ينزع عنه الحجب. إنه لا يصنع النور في الأشياء؛ بل يفتح العين على النور الذي كان فيها منذ البدء.

﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾

يا لها من آية تهبط فجأة على القلب كخبر قادم من الغيب!

إنها لا تصف جدال الكافرين اليوم، بل ندمهم غدًا. تراهم الآن يرفعون أصواتهم بالسخرية، ويظهرون ثقة المتحرر من الإيمان، ولكن السورة تكشف المشهد الأخير: سيأتي وقت تتساقط فيه الأقنعة، ويتحول الاستهزاء إلى أمنية، ويودُّ الذين كفروا لو أنهم كانوا مسلمين.

الإسلام الذي رأوه قيدًا سيتمنونه نجاه. والسجدة التي استثقلوها سيتمنون لو سجدوا مثلها آلاف المرات. والحق الذي حاربوه سيعرفون أنه كان الباب الوحيد المفتوح أمامهم.

إن كثيرًا من حقائق الحياة لا تظهر قيمتها إلا بعد فواتها: الصحة حين يأتي المرض، والأمان حين يحل الخوف، والرفيق الصادق حين تقع الوحشة، والعمر حين يدنو الأجل. أما الإيمان، فإن فواته ليس حسرة على شيء ضاع من أشياء الدنيا، بل حسرة على المصير كله.

والمؤمن قد يتعب في الطريق، وقد يرى أهل الباطل أوسع منه رزقًا، وأكثر حضورًا، وأشد نفوذًا؛ لكنه يحمل في قلبه نعمة سيعرف الآخرون قدرها حين تنتهي مواسم المظاهر. وسيأتي يوم لا يتمنى فيه المؤمن أنه كان مثلهم، بل يتمنون هم لو كانوا مثله.

فلا تقس فضل الإيمان بمقدار ما يمنحك من راحة عاجلة فقط؛ قسّه بذلك اليوم الذي تصبح فيه كلمة «مسلم» أمنية الذين أضاعوا أعمارهم بعيدًا عن الله.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

تختصر هذه الآية مأساة الإنسان الغافل في ثلاثة أفعال: يأكل، ويتمتع، ويأمل.

ليس الطعام مذمومًا، ولا المتعة المباحة محرمة، ولا الأمل عيبًا؛ ولكن الخطر أن تصبح هذه الأشياء هي المعنى كله. أن يأكل الإنسان كما تأكل الأنعام، ويتمتع بلا سؤال عن الغاية، ويمد أمامه حبال الأمل حتى ينسى أن للحياة نهاية.

المشكلة ليست في أن يكون لك أمل، بل في أن يلهيك الأمل. أن يتحول الغد إلى مخدّر تتعاطاه كلما أيقظتك حقيقة الموت. تقول: سأتوب حين تهدأ الحياة، وسأصلح نفسي حين تنتهي المشاغل، وسأعود إلى الله بعد أن أبلغ ما أريد. ولكن المشاغل لا تنتهي، والرغبات كلما أطعمت ازدادت جوعًا، والعمر لا ينتظر اكتمال خطتك.

الأمل الذي يقود إلى العمل حياة، أما الأمل الذي يؤجل العمل فغفلة. الأول يقول: بقي من العمر ما أستدرك به، والثاني يقول: ما زال أمامي وقت طويل، فلا حاجة إلى الاستدراك الآن.

وفي قوله: ﴿ذَرُّهُمْ﴾ نبرة مخيفة؛ فليس أشد على الإنسان من أن يُترك لهواه، ويُمهّل حتى يظن أن الإمهال رضا. قد يكون المنع عناية، وقد تكون المصيبة إيقاظًا، وقد يكون الألم يدًا تنتشلك من طريق الهلاك؛ أما أن ينال المرء كل ما يشتهي، ويزداد مع كل نعمة بعدًا، فذلك استدراج لا يعرف فظاعته إلا حين يصل إلى نهايته.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

سوف يعلمون، ولكن المعرفة المتأخرة لا تنجي. سيعلمون أن اللذة كانت عابرة، وأن الأمل كان خادعًا، وأن الحياة التي بدت طويلة لم تكن إلا ممرًا قصيرًا. والسعيد من عرف الآن، قبل أن تصبح المعرفة جزءًا من العقوبة.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿١٠﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾

لا تتحرك الأمم خارج علم الله، ولا يسقط طاغية قبل أجله، ولا يبقى بعده. للتاريخ كتاب معلوم، وإن بدا للناس فوضى من الصعود والسقوط.

نحن نرى الحدث منفصلاً، والله يعلم السياق كله. نرى ظلمًا يتأخر عقابه فنظن أن ميزان الكون قد اختل، ونرى باطلاً يطول بقاؤه فنحسب أن الحق قد هُزم. لكن الآية ترد القلب إلى يقينه: لكل قرية كتاب، ولكل أمة أجل، ولكل قوة ساعة تنتهي عندها، لا تتقدم عنها ولا تتأخر.

ليس معنى ذلك أن يقف المؤمن ساكنًا أمام الظلم منتظرًا الأجل؛ بل أن يعمل من غير أن ينهار إذا تأخرت الثمرة. فالذي يوقن أن التاريخ لا يفلت من يد الله لا يستسلم، ولا يستعجل، ولا يبيع مبدئه لأن النصر لم يأتِ في الموعد الذي حدده هو.

كم من طاغية ظن أن امتداد أيامه دليل على خلوده! وكم من مظلوم ظن أن تأخر الفرج دليل على نسيانه! غير أن الله لا ينسى؛ إنما تجري الأقدار إلى موافقتها، وتنضج النتائج في رحم الغيب قبل أن تولد في عالم الشهادة.

إن الأجل ليس خاصًا بالأفراد؛ للأفكار آجال، وللحضارات آجال، وللأنظمة آجال، وللحظات القوة والضعف آجال. وكل ما لا يقوم على الحق يحمل في داخله بذرة انهياره، وإن بدت جدرانها عالية.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾

حين يعجز الباطل عن إسقاط الفكرة يحاول إسقاط صاحبها.

لم يناقشوا الذكر، بل وصفوا حامله بالجنون. وهذه حيلة قديمة تتكرر كلما جاء الحق بما يزعج المألوف؛ فالناس الذين بنوا مكانتهم على الباطل لا يملكون دائمًا شجاعة مواجهة الحجة، فينقلون المعركة من «ماذا قال؟» إلى «من هذا الذي قال؟».

وقد يختار المجتمع لخصمه أكثر الصفات إيلا مًا؛ لأن غايته ليست البحث عن الحقيقة، بل عزل صاحبها نفسيًا واجتماعيًا. فإذا وصفوه بالجنون لم يعودوا مضطرين إلى الإصغاء إليه، وإذا اتهموا نيته أعفوا أنفسهم من فحص كلمته.

وهكذا يُعاقَب صاحب البصيرة أحيانًا لأنه رأى قبل الآخرين. تبدو رؤيته غريبة لا لأنها باطلة، بل لأن العيون من حوله اعتادت العتمة. وَمَنْ يعيش طويلاً في كهف قد يظن أول من يحدثه عن الشمس مجنونًا.

لكن الآية تمنح كل صاحب حق عزاءً عظيمًا: ليست قيمة الكلمة فيما يقوله المستهزون عنها، بل فيما يعلمه الله منها. قد تُرمى بالجنون لأنك رفضت جنون الجماعة، وقد تُتهم بالتشدد لأنك لم تُلن للباطل، وقد تبدو غريبًا لأنك حافظت على فطرتك في زمن اغترب عن فطرته.

فلا تجعل سخرية العابرين محكمةً تحاكم بها يقينك.

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

كانوا يطلبون الملائكة، لا طلبًا للهداية، بل تعنتًا واستهزاءً. فليس كل من طلب آية يريد أن يؤمن؛ قد يطلبها ليؤجل استجابته، أو ليخفي رفضه خلف شروط متجددة.

يقول القلب المراوغ: لو رأيت معجزة لآمنت، ولو انكشف لي الغيب لأطعت، ولو جاءني ما يزيل كل تردد لاستقمت. لكنه لا ينتبه إلى المعجزات المنتشرة حوله: وجوده بعد العدم، وانتظام الكون، ونبض القلب، ونداء الفطرة، وهذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه.

إن الذي لا يرى الدلالة في ورقة تخضر، ولا في روح تحيا، ولا في آية تهز القلب؛ قد لا تنفعه الملائكة لو هبطت أمام عينيه. فالإيمان ليس نقصاً في المعروض من الأدلة دائماً؛ إنه استعداد أخلاقي للاعتراف بما تدل عليه الأدلة.

﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾

الملائكة لا تنزل لعبةً في مسرح العبث، ولا استجابةً لشهوة المتعنتين في الفرجة. إن نزلت على المكذبين للفصل والعذاب، انتهى زمن الإمهال، ولم يبق مجال للتوبة.

كانوا يطلبون ما لو جاءهم لأهلكهم؛ وهذا من جهل الإنسان: قد يلح في طلب شيء، وتكون الرحمة في تأخيرته عنه. وقد يرى عدم إجابة طلبه حرماناً، وهو عين الحفظ.

إن الله لا يدير الكون وفق نزوات البشر، ولا يحول الغيب إلى عرض حسي لإشباع الفضول. للغيب جلاله، وللآيات حكمته، وللقدّر حقه الذي ينزل به.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

بعد أن سخروا من الرسول ﷺ ومن الذكر الذي نزل عليه، جاء الجواب من السماء لا دفاعاً جدلياً مؤقتاً، بل وعداً يعبر القرون: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

لم يعد الله أن يحفظ القرآن في الصدور وحدها، أو في السطور وحدها، بل جاء الحفظ مطلقاً شاملاً؛ فحُفِظ نصه، وتتابعَت تلاوته، وقامت الأمة تتلقاه جيلاً عن جيل. مات الذين سَخَرُوا، وبقي ما سَخَرُوا منه. انطفأت أصواتهم، وظلت الآية تُتلى. وهذه واحدة من أعَمَقِ سنن السورة: الباطل مرتفع الصوت قصير العمر، والحق قد يُحاصر لكنه طويل البقاء.

قالوا عن الرسول ﷺ: **(إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)**، فحفظ الله الكلمة التي حملها، وحفظ معها ذكره في العالمين. أما الذين استهزؤوا، فلم يبق من ذكرهم إلا أنهم استهزؤوا.

ويا لها من طمأنينة للداعية والمصلح والكاتب الصادق: أنت لست مكلفاً أن تحرس الحق بقوتك المحدودة كأن مصيره معلق بيدك؛ عليك أن تصدق في حمله، أما حفظه فالإلى الله. قد يحارب الناس النور، لكنهم لا يستطيعون إطفاء ما تولى الله حفظه.

وفي الآية معنى يلامس القلب من جهة أخرى: إذا كان الله قد حفظ الذكر لهذه الأمة، فإن من أراد أن يُحفظ قلبه من الضياع فليجعل له نصيباً من هذا الذكر. فالقرآن محفوظ بحفظ الله، والقلوب تحفظ نفسها به من التشطي والتهيه. كلما بعثرتها الحياة جمعها القرآن، وكلما لوثتها الشهوات غسلها، وكلما أرهقتها التفاصيل ردها إلى الحقيقة الكبرى.

إنه الكتاب المحفوظ، وهو كذلك الكتاب الذي يحفظ قارئه: يحفظ معنى الإنسان فيه، ويحفظ بوصلته، ويحفظ آخرته من أن تضيع في زحام العاجلة.

وهكذا ينتهي المطلع وقد وضع أمامنا ميزان السورة: أناسٌ يملكون الضجيج ولا يملكون البقاء، وكتابٌ يواجه السخرية لكنه يحمل وعد الخلود. والإنسان مخيرٌ أن يكون مع الصوت الذي سيخفت، أو مع الذكر الذي تكفل الله أن يبقى.

الفصل الثاني

نوافذُ السَّماءِ وأبوابُ القلوب

تأملات في الآيات (25-10)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

ليس الاستهزاء بالحق حادثةً طارئةً في طريق الرسائل، بل يكاد يكون الظلُّ الأول الذي يخرج لملاقاة النور.

كلما جاء رسولٌ إلى قومه يحمل إليهم كلمةً أرفع من عاداتهم، وأظهر من شهواتهم، وأعدل من مصالح مترفيهم، استقبلوه بالسخرية. لم تكن المشكلة أن الرسل لم يحسنوا البيان، ولا أن الدليل كان ناقصاً؛ وإنما كان الحق يطالب الناس أن يغادروا مواقع ألفوها، وأن ينزل المتكبر عن عرشه الداخلي، وأن يعترف المستفيد من الفساد بأن النظام الذي يمنحه الامتيازات نظام باطل.

وهذا ما لا تطيقه النفوس المستكبرة بسهولة.

إن الضحك قد يكون في ظاهره علامة خفة، ولكنه حين يُوجَّه إلى الحق يصبح وسيلة دفاع نفسي. يسخر الإنسان مما يخاف أن يصدقه؛ لأن التصديق سيُلزمه أن يعيد بناء حياته. فيحوّل الحقيقة

إلى نكتة، ويجعل المصلح مادةً للتندر، حتى يتخلص من ثقل السؤال الذي جاءه به.

والآيتان تسكبان على قلب الرسول ﷺ عزاء التاريخ: لست أول من استهزئ به، ولست وحدك في هذا الطريق. إن خلفك موكباً طويلاً من الأنبياء، تعرّضوا لما تتعرض له، ثم مضى المستهزون وبقيت رسالاتهم.

إن مواساة الله لنبيّه لم تكن بأن يخبره أن الأذى وهم لا ينبغي أن يشعر به؛ بل بأن يضع ألمه في سياقه الكبير. فالألم حين يفهم يخف بعض ثقله، والغربة حين يعلم صاحبها أن فيها رفقةً من الأنبياء تتحول من وحشة إلى اصطفاء.

يا صاحب الكلمة الصادقة، لا تجعل استهزاء الناس دليلاً على خطأ طريقك، كما لا تجعل إعجابهم دليلاً على صوابه. زن ما تقول بميزان الحق، لا بتقلب الوجوه. فالناس قد يصفقون للباطل إذا وافق أهواءهم، ويسخرون من الحق إذا أزعج مصالحهم.

وليس كل من ضحك منتصراً؛ فقد يكون الضحك آخر ستار يضعه الخائف بينه وبين الحقيقة.

﴿كَذَلِكَ نَسُكُّهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾

يمر القرآن في قلوبهم، وتقوم حجته عليهم، ويصل إلى موضع الإدراك فيهم؛ ولكنهم لا يؤمنون به. وهذا مشهد مخيف: أن يبلغ النور قلب الإنسان، ثم يخرج منه من غير أن يفتح له القلب باباً.

ليست المسافات كلها بين الإنسان والحق مسافات فكرية؛ فقد يكون الدليل قريباً والعناد بعيد الغور. يسمع المرء الآية، ويفهم معناها، ويشعر للحظة أنها تخاطبه، ثم تهب عليه رياح الهوى فتدفع ذلك النداء إلى أطراف الذاكرة. يقرر ألا يسمع ما سمع، وألا يعرف ما عرف؛ لأن المعرفة الصادقة مسؤولية.

لقد وصفهم الله بالمجرمين قبل أن يذكر عدم إيمانهم؛ لأن الجريمة ليست مجرد نتيجة للكفر، بل قد تكون طريقاً إليه. حين يعتاد القلب الظلم، يصبح الحق عدواً له؛ فالحق مرآة، والمجرم لا يحب المرأة التي تريه وجهه الحقيقي.

وقد يكون الحجاب بين المرء والقرآن ذنباً يدافع عنه، أو كبيراً يخشى أن ينكسر، أو مصلحة لا يريد التخلي عنها، أو صورة صنعها لنفسه ويخشى أن تهدمها الهداية. ولذلك لا تكفي سلامة العقل وحدها ما لم تصحبها نزاهة القلب.

﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾.

للتكذيب سنة، كما أن للهداية سنة. يبدأ الباطل بالاستهزاء، ثم ينتقل إلى العناد، ثم يطلب مزيداً من الأدلة لا بحثاً عن الحق بل هرباً منه، ثم ينتهي إلى مصير سبق إليه المكذبون.

والتاريخ، في القرآن، ليس مخزنًا للحكايات؛ إنه مختبر للسنن. تتغير الأسماء واللغات والثياب، لكن النفس البشرية تعيد أخطاءها القديمة في صور جديدة. وقد يظن جيلٌ أنه أكثر حداثة من أن يلحقه مصير السابقين، ولكنه يمارس كبرهم نفسه بأدوات أشد لمعانًا.

فالحداثة لا تلغي سنن الله، والتقدم التقني لا يمنح الإنسان حصانةً أخلاقية، ومن غيّر شكل الجريمة ولم يغير جوهرها لم يخرج من طريق المجرمين.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٠﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾

ليست الآية عن قوم حُجب عنهم الدليل؛ بل عن قوم لو فُتح لهم باب السماء، وصعدوا فيه بأنفسهم، وظلوا يعرجون في آفاقه، لوجدوا طريقةً لإنكار ما تبصره أعينهم.

إن الذي قرر النتيجة قبل أن ينظر في البرهان لا يهديه تراكم البراهين. ولو نقلته من الأرض إلى السماء، لقال: خُدعت أبصارنا. ولو جعلته يلمس الحقيقة بيديه، لقال: وقعنا تحت السحر.

هنا تكشف السورة أن الإيمان ليس عمليةً بصريةً محضة. فالعين قد ترى، ولكن القلب يفسد معنى ما رأت. وقد تبلغ الحقيقة من الوضوح حدًّا لا يحتمل الشك، ثم يصنع الهوى حولها ضبابًا من التأويلات؛ لأن المشكلة لم تكن في العين، بل في الإرادة.

﴿سَكَّرَتْ أَبْصَارَنَا﴾: كأن الأبصار أغلقت أو حُيِّرَتْ، فلم تعد ترى الأشياء على حقيقتها. وما أكثر ما يصنع الإنسان هذا بنفسه؛ يغلق نوافذه ثم يقول إن الشمس غائبة، ويهرب من الحقيقة ثم يتهمها بأنها لم تأت إليه.

وكم من إنسان يطلب من الله علامة، فإذا جاءت العلامة فتش عن تفسير يفرغها من معناها! تتجو حياته من خطر فيسميه مصادفة، ويأتيه الرزق من حيث لم يحتسب فيراه حظًا، ويطرق قلبه الندم فيحسبه ضعفًا، ثم يقول: أين دلائل الله؟

إن الآيات لا تصنع الإيمان في قلب يعاهد نفسه على الرفض. وقد لا يحتاج الإنسان إلى معجزة أكبر، بل إلى كبر أقل. لا يحتاج دائمًا إلى أن يُفتح له باب في السماء، بل أن يفتح بابًا في قلبه.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾

بعد صورة الباب المفتوح في السماء، ترفع السورة أبصارنا إلى السماء نفسها: بروجٌ، واتساعٌ، وزينةٌ للنّاظرين.

لم يخلق الله الكون صالحًا للحياة فحسب؛ بل جعله جميلًا. كان يمكن للسماء أن تؤدي وظائفها من غير أن تسكب النجوم على ليل الإنسان، ولكن الله زينها للناظرين. وفي ذلك معنى عميق: الجمال ليس زائدًا لا ضرورة له في الوجود، بل هو بعض آيات الله، وطريق من طرق معرفة كرمه.

إنه لم يقل: وزينّاها، ثم سكت؛ بل قال: ﴿لِلنَّاطِرِينَ﴾. فالزينة موجودة، لكنها تنتظر عينًا تنظر. وكم من جمال يمتلئ به الكون ولا يصل إلى قلوبنا لأننا فقدنا عبادة النظر!

نرفع أعيننا إلى السماء فلا نراها؛ لأننا مشغولون بشاشات صغيرة تحاصر أبصارنا. نعبر تحت النجوم كأنها سقف معتاد، ونرى الشروق يتكرر حتى يفقد في نفوسنا دهشته، لا لأنه صار أقل جمالًا، بل لأن أرواحنا صارت أقل حضورًا.

والقرآن يعيد إلى الإنسان عينيه؛ يأخذه من ضيق عاداته إلى اتساع السماء، ويقول له: انظر. إن فوق همومك كونا لم يختل، وفوق اضطرابك نظامًا لا يتعثر، وفوق ضجيج الأرض صمتًا كونيًا يحدثك عن الله.

ومن تأمل قوله: ﴿وَزَيَّنَّاها لِلنَّاطِرِينَ﴾ أدرك أن الإيمان لا يطفئ الحس الجمالي، بل يوقظه. المؤمن لا يرى النجمة مادةً مضيئة فحسب؛ يراها أثرًا من آثار الحكمة والجمال، فتتحول الرؤية عنده إلى معرفة، والجمال إلى خشوع.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾

السماء مزينة ومحفوظة. والجمال في خلق الله ليس فوضى، بل جمال تحرسه القدرة. وما يحاول الشيطان أن يسترقه لا يناله أمناً؛ يتبعه شهاب مبين.

وفي المشهد توافق بديع مع وعد حفظ الذكر: السماء التي نزل منها الوحي محفوظة، والذكر الذي نزل منها محفوظ. هناك حراسة لمصدر الرسالة، وحفظ لنصها، حتى تبلغ الأرض نقيّة من عبث الشياطين.

إن الله لا يترك كلمته نهباً للظنون، ولا يسلم هدايته ليد العبث. وقد يحيط الباطل بالوحي، ويفتري عليه، ويشوّش على أتباعه، لكنه لا يستطيع النفاذ إلى أصل النور. يظل القرآن هو القرآن؛ تسترشد به الأجيال بعد أن تسقط حوله آلاف الأكاذيب.

والشيطان «رجيم»؛ مطرود من الرحمة، متّبِع بالشهب، لكنه يحاول. وهكذا الباطل: يعرف أنه لا يملك الحق، ومع ذلك يترصد له، ويختطف شيئاً من اللغة ليزين كذبه، أو شيئاً من الحقيقة ليخلطه بأباطيله.

فليس كل كلام تتلأأ فيه قطعة من الحق حقاً؛ قد يكون استراقاً يُراد به تمرير الباطل. والحكمة أن ننظر إلى البناء كله، لا إلى اللفظة المخطوفة من سياقها.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾

من السماء إلى الأرض؛ من البروج البعيدة إلى التراب الذي تمشي عليه الأقدام. وفي كليتهما نظام: في السماء حفظ وزينة، وفي الأرض امتداد وثبات وميزان.

﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾: كلمة تضع يد الإنسان على سر عميق في الكون؛ ليس الوجود كومةً من الأشياء المبعثرة، بل بناء يقوم على المقادير. الماء بمقدار، والهواء بمقدار، والحرارة بمقدار، والنبات في خصائصه ومواسمه بمقدار. ولو اختلف بعض هذا الميزان اختلالاً يسيراً، انقلبت النعمة محنةً والحياة هلاكاً.

الميزان أسبق من الإنسان، وهو شرط لوجوده. جاء إلى عالم منضبط قبل أن يعرف معنى الانضباط. وجد الشمس لا تتأخر عن موعدها، والأرض لا تنسى مسارها، والبذرة لا تخرج شجرة غريبة عن حقيقتها. وحده الإنسان يستطيع أن يتمرّد على ميزانه الأخلاقي، فيأخذ أكثر مما يحتاج، ويطغى أكثر مما يحتمل، ويحوّل الوفرة إلى فساد.

والكون من حوله يعلمه بصمت: الاستقامة ليست جموداً، بل انتظام مع الغاية. فالشمس مستقيمة في فلكها، والنبته مستقيمة في قانونها، والأرض مستقيمة في مهمتها؛ فإذا انحرف الإنسان عن عبوديته صار النشاز الوحيد في هذه المقطوعة الموزونة.

والرواسي التي تثبت الأرض تهمس للروح بمعنى آخر: ليست الحياة كلها حركة. لا بد للقلب من رواسي تمنعه أن تميد به الفتن؛ عقيدة راسخة، ومبدأ لا يُباع، وذكرٌ يعود إليه حين تتغير الوجوه والمواقف.

ومن لم يغرس في نفسه رواسي اليقين، حملته كل موجة إلى جهة.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾

قال: ﴿لَكُمْ﴾؛ فالأرض ليست مشهدًا كونيًا بعيدًا، بل بيت أعدّ للإنسان. فيها معاشه، وأسباب بقائه، وما تقوم به حاجاته.

ثم يزيح الله عن الإنسان وهمًا ثقيلاً: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾. ففي هذه الأرض خلائق كثيرة تعيش حولكم، لكنكم لا ترزقونها. لستم أنتم الذين تطعمون الطائر في عشه، ولا الوحش في فلاة لا يبلغها أحد، ولا الدابة في أعماق الأرض، ولا المخلوق الذي لم تعرفوا وجوده بعد.

أنت سبب في رزق بعض من حولك، ولكنك لست الرزاق. تجري النفقة على يديك، ولا تنبع من قدرتك المستقلة. وما أعظم الفرق بين أن ترى نفسك مالكا للرزق، وأن ترى نفسك ممرا أجرى الله عبره بعض عطائه!

إذا ظن الإنسان أنه الرزاق، استعلى على من أعطاه، ومنّ عليه، وأذله بحاجته. أما إذا عرف أن المال مال الله، وأن يده ليست إلا باباً مؤقتاً، أعطى بأدب، وخاف أن يُغلق الباب بسبب كبره.

وفي الآية طمأنينة للقلوب التي أرهقها الخوف على أرزاقها وأرزاق من تعول: افعل ما تستطيع، واسع فيما أباح الله، ولكن لا تحمل فوق قلبك وظيفة ليست لك. لست أنت الذي يدير خزائن الوجود.

لقد كان الله يرزقهم قبل أن يعرفوا اسمك، وسيظل رزقهم متعلقاً بحكمته لا بوهم سيطرتك. أنت مأمور بالسعي، لا بادعاء الربوبية.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾

هذه الآية وحدها تكفي لأن تُطفئ حرائق كثيرة في الصدر.

كل شيء له خزائن عند الله: خزائن الأرزاق، وخزائن الرحمة، وخزائن الفرج، وخزائن القوة، وخزائن الأفكار، وخزائن السكينة التي يبحث عنها المتعبون في كل مكان ولا يجدونها إلا حين ينزلها الله على القلب.

ما تراه قليلاً في الأرض ليس قليلاً في خزائن الله. وما تأخر عنك لم يتأخر لعجز في المعطي، ولا لنفاد في الخزائن؛ وإنما ينزل ﴿بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

قد تسأل الله شيئاً، وتتخيل أن الرحمة لا تكون إلا بإعطائه كاملاً وفوراً. لكن الله يعلم المقادير التي تصلحك. فرب وفرة أفسدت، ورب تأخير ربّي، ورب حرمان في ظاهره سدّ عنك باباً من الهلاك.

ليس كل ما تقدر على حمله بيدك يقدر قلبك على حمله. وقد يحجب الله عنك شيئاً حتى ينضج فيك الموضع الذي سيتلقى النعمة. فالنعمة قبل أوانها قد تكون فتنة، والجواب قبل اكتمال السؤال قد يضيّع حكمة الطريق.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

إنها تربية على التحرر من المقارنة. فلغيرك قدر، ولك قدر؛ تنزل الأرزاق والحظوظ والمواهب وفق علم لا تحيط به. والمقارنة تريك ما نزل على غيرك، لكنها لا تريك ما صُرف عنه، ولا ما أُعِدَّ لك، ولا الحكمة التي يختبئ فيها اختلاف المقادير.

فلا تنظر إلى يد غيرك وتنسّ خزائن ربك.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾

ترسل الرياح، فتلقح السحب أو النبات، ثم ينزل الماء، فتشرب الأرض ويشرب الإنسان. سلسلة كاملة من الرحمة تعمل قبل أن يرفع العطشان الإناء إلى فمه.

كم من جنود مسخرة تعمل لتصل قطرة ماء إلى شفتيك! ريح تتحرك، وسحاب يتكون، وماء ينزل، وأرض تختزن، ثم ينبوع أو نهر أو بئر. وأنت في نهاية التدبير تقول ببساطة: شربت.

﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾: ينسب الله السقيا إلى نفسه كيلا تنسينا الأوعية الواهب. الصنبور ليس مصدر الماء، كما أن الوظيفة ليست مصدر الرزق، والطبيب ليس مصدر الشفاء، والصديق ليس مصدر الأُنس. هذه أبواب، أما الخزائن فعند الله.

﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾: حتى الماء الذي تتوقف عليه حياتكم لا تملكون خزائنه الكبرى. قد تجمعون منه قليلاً، وتبنون السدود، وتحسنون إدارة الموارد، ولكنكم لا تخلقون السحاب، ولا تملكون قوانين الكون التي تحفظ دورته.

هذه الآيات لا تلغي دور الإنسان؛ بل تحرره من الغرور. تطلب منه أن يعمل وهو يعلم أنه ليس سيد النتائج، وأن يشكر لأنه يعيش على عطايا لم يصنع أصولها.

وإذا كان ماء الأرض ينزل بقدر، فإن ماء الروح كذلك. قد تمر على الإنسان أيام يجف فيها قلبه، ثم تهب ريح كلمة صادقة، وتتجمع سحب الرحمة، وتنزل عليه آية واحدة، فإذا داخله الذي كان قاحلاً يورق من جديد.

فلا تيأس من أرض قلبك؛ إن خزائن الغيث عند الله.

﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾

بعد إنبات الأرض وإنزال الماء يأتي التصريح بالحقيقة الجامعة: الله يحيي ويميت.

نرى أسباب الحياة؛ غذاءً ودواءً وهواءً وماءً، فننشغل بها عن سر الحياة نفسه. لكن أي يد بشرية تستطيع أن تأمر القلب أن يبدأ نبضته الأولى؟ وأي قوة تستطيع أن تمنع عنه النبضة الأخيرة إذا جاء موعدها؟

الله يحيي ويميت، ثم يبقى بعد أن يذهب الجميع: ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾.

كل ما يتصارع عليه البشر سيتركونه. الأرض التي سفكوا الدماء لتوسيع حدودهم فيها ستبقى بعدهم، والبيوت التي ظنوا أنها تحمل أسماءهم ستنتقل إلى سواهم، والمناصب التي تقاتلوا عليها ستجلس عليها وجوه جديدة، ثم تتركها بدورها.

إن الإنسان لا يملك الأشياء؛ إنما يستعيرها زمناً. حتى جسده ليس ملكاً مطلقاً له؛ يسكنه مدة ثم يغادره. وحين يعي أنه مستخلف لا مالك، تتغير علاقته بالدنيا: ينتفع ولا يُستعبد، ويعمر ولا يتجبر، ويمسك الأشياء بيده ولا يسمح لها أن تمسك قلبه.

﴿وَلَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ ليست خبراً عن نهاية الممتلكات فقط، بل حكم على كل غرور بشري. فالذي يملك في النهاية هو الذي يملك على الحقيقة، ولا يبقى في النهاية إلا الله.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

يعلم الذين تقدموا من أجيال البشر، والذين تأخروا. لا يضيع في علمه أول إنسان ولا آخر إنسان، ولا يختلط عليه صوت بصوت، ولا وجه بوجه، ولا مظلمة بمظلمة.

يموت الناس فرادى، ويتناثر ترابهم في الأرض، وتتعاقب القرون حتى تُنسى أسماؤهم؛ لكنهم لم يخرجوا من علم الله لحظة. الذي علم مواضعهم أحياء يعلم مواضعهم أمواتاً، والذي بدأ خلقهم قادر على أن يحشرهم.

وقد يخيف الإنسان أن يكون مجهولاً في العالم؛ أن يمضي من غير أن يلتفت إليه أحد، وأن يحمل ألمه في صمت لا يدركه الناس. لكن الآية تقول له: أنت معلوم. قد تتأخر في قوائم الدنيا

كلها، ولا يكون لك موضع في ذاكرة المشهورين، لكنك لا تتأخر عن علم الله.

يعلم من سبقك، ويعلم من يأتي بعدك، ويعلم خطوتك التي لم يرها أحد، ودمعتك التي أخفيتها، والظلم الذي وقع عليك ثم كتبه الناس في رواية أخرى. وحين يحشرهم، لا يكون الحشر جمعاً فوضوياً؛ بل جمعاً يجري عن حكمة وعلم.

﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

عليمٌ، فلا يضيع من تفاصيل الحكاية شيء. وحكيمٌ، فلا يوضع الحكم في غير موضعه.

وبهذا تختتم هذه الجولة الكونية: السماء ببروجها، والأرض برواسيها، والنبات بميزانه، والرزق بخزائنه، والمطر بأسبابه، والحياة والموت، ثم الحشر. لقد أخذتنا الآيات من باب في السماء إلى مشهد الخلائق مجتمعة بين يدي الله، لتقول: إن الوجود ليس بلا مركز، والتاريخ ليس بلا غاية، والإنسان ليس ذرةً تائهة في كون أصم.

كل شيء موزون، وكل رزق مقدر، وكل نفس معلومة، وكل طريق ينتهي إلى الحشر.

ومن عرف ذلك لم يعد يسأل في زعر: من يدير هذا العالم؟ بل يسأل في مسؤولية: كيف ألقى مَنْ يديره؟

الفصل الثالث

حِينَ تَكْبَرَتِ النَّارُ عَلَى الطِّينِ

تأملات في الآيات (26-44)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾

بعد أن خلّقت السورة في بروج السماء، وسارت بنا فوق الأرض الممتدة، وأرتنا خزائن الرزق وأسرار الماء والحياة والموت، أعادت الإنسان إلى بدايته الأولى؛ إلى المادة التي خرج منها قبل أن يصير هذا الكائن الذي يتكلم ويعقل ويخاصم ويتكبر.

﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

طينٌ يابس له صلصلة، أصله حمأ متغير. ليست البداية ذهبًا ولا نورًا ولا جوهراً يتباهى به؛ بل مادة أرضية متواضعة، كانت تُداس بالأقدام قبل أن يشاء الله أن يسوّي منها إنسانًا.

وما أبلغ أن يُذكَر المتكبر بأصله! فالإنسان الذي يأنف من إنسان آخر لاختلاف اللون أو النسب أو المال، ينسى أن الأجساد كلها خرجت من العائلة الترابية نفسها. وحين يتفاخر طين على طين، يصبح المشهد في ميزان الحقيقة مثيرًا للرتاء.

لكن الآية لا تهين الإنسان بذكر أصله؛ بل تكشف عظمة القدرة التي رفعتة. إن قيمة الإنسان ليست في مادة تكوينه، وإنما فيما أودعه الله فيه من حياة وعقل واستعداد لمعرفة ربه. ومن هنا يسقط ميزانان فاسدان: ميزان يحتقر الإنسان لأنه من تراب، وميزان يؤلهه حتى ينسى أنه من تراب.

إنه مخلوق مكرم، لا إله مستقل. عظيم بما وهبه الله، فقير في أصل وجوده وكل لحظة من بقاءه.

أما الجان فقد خُلق من قبل من نار السموم، وهي نار شديدة الحرارة نافذة. مادة مختلفة، وخلق سابق؛ لكن اختلاف المادة لا يثبت فضلاً أخلاقياً. فالمادة لا تختار موقفها، وإنما يعلو المخلوق بطاعته ويسقط بعصيانه.

وهنا تبدأ السورة في هدم فلسفة إبليس قبل أن تنتقل كلماته: أنت من نار، وآدم من طين، لكن السؤال ليس: ممّ خُلقت؟ بل: ماذا فعلت بأمر الله؟

ليس الشرف في بداية المادة، بل في نهاية الاختيار.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾

كان خلق الإنسان معلوماً ومقصوداً قبل ظهوره. لم يأتِ عرضاً في الوجود، ولم يكن خطأ كونياً؛ بل جاء بإرادة الله وتقديره: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا﴾.

وهذا وحده يمنح الوجود الإنساني معنى. أنت لست فائضاً في الكون، ولا نتيجةً بلا غاية؛ وراء وجودك إرادة الخالق، وأمامك تكليف ومصير.

ثم قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾. تسويةً أبدع الله بها خلق الإنسان، وهياً لما أراده له. ثم أضاف الروح إلى نفسه إضافة تشریف: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾؛ أي من الروح التي خلقها ونسبها إليه تكريماً، لا أن في الإنسان جزءاً من ذات الله تعالى؛ فالله سبحانه أحدٌ متفرد، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وبهذا السر المخلوق انتقل الجسد من صورة ساكنة إلى كائن حي يسمع ويبصر ويعقل. كان الطين معداً، ثم جاءت الحياة بأمر الله.

إن الإنسان يملك أن يشكّل التراب، وأن يصنع تمثالاً بالغ الدقة، لكنه يقف أمام سر الحياة عاجزاً. قد يقلد هيئة العين، ولا يهبها بصراً؛ وقد يصنع آلة تحاكي التفكير، ولا يملك أن يودع فيها حقيقة الروح. فبين الشكل والحياة مسافة لا يقطعها إلا أمر الخالق.

﴿فَقَعُّوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

كان سجود الملائكة لآدم امتثالاً لأمر الله وتكريماً لآدم، ولم يكن عبادةً له؛ فالعبادة لا تكون إلا لله. وهنا يبلغ تكريم الإنسان ذروته، لا لأنه من طين، بل لأن الله خلقه وسوّاه وشرّفه بما شاء.

غير أن هذا التكريم ليس صكاً مفتوحاً يعلو به الإنسان ولو عصى. لقد كُرِّم بما أُعِدَّ له من معرفة وعبودية؛ فإذا تنكّر لغايته، انحدر بإرادته عن مقامه.

إن كرامة الإنسان الحقيقية ليست في أن يتحرر من العبودية لله، بل في ألا يعبد سواه. كلما ازداد الله عبوديةً، تحرر من عبودية الشهوة والمال والناس والخوف. وكلما تمرّد على خالقه، سقط غالباً تحت أقدام مخلوق أو رغبة.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٥١﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾

﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾: لم يتأخر ملك، ولم يسأل متكبراً عن الحكمة قبل الطاعة، ولم يجعل أحد منهم رأيه ندّاً لأمر الله.

وفي الجهة الأخرى يقف إبليس وحده: ﴿أَبَى﴾.

ليست المشكلة أنه عجز، بل أنه أبى. فالطاعة كانت ممكنة، لكنه رفضها بإرادته. وهنا يبدأ كل انحراف كبير: حين يتحول «لا أستطيع» إلى ستار يخفي «لا أريد»، وحين يعرف الإنسان أمر الله ثم يقرر أن اختياره أحق بالاتباع.

لقد كان إبليس يعرف الله، ويخاطبه، ويعلم أنه الخالق؛ فلم تنفعه المعرفة المجردة حين لم تثمر خضوعاً. وهذا يضع أمامنا فارقاً حاسماً بين أن تعرف الحقيقة، وأن تستسلم لها. قد يمتلئ العقل بالمعلومات عن الدين، ويبقى القلب متمرداً. وقد يحفظ اللسان نصوصاً كثيرة، بينما تحتفظ النفس لنفسها بحق الاعتراض على الله إذا خالف الأمر هواها.

الإيمان ليس معلومة باردة عن وجود الله؛ إنه انحناء الإرادة لأمره.

﴿أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

لعل في العبارة كشفاً لوحشة الكبر. كان جميع الملائكة ساجدين، وكان يستطيع أن يكون في جماعة الطاعة، لكنه اختار أن ينفرد بعصيانته. ظن أن الوقوف مرفوع الرأس أشرف له، ولم يدرك أن السجود لله هو الارتفاع الحقيقي، وأن من رفض أن يضع جبهته حيث أمر الله وضع مصيره في درك اللعنة.

الساجد لا يصغر؛ بل يسقط عنه الجزء الزائف الذي كان يظنه عظمة.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ○ ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾

جاءه السؤال كاشفًا: ﴿مَا لَكَ؟﴾ ما الذي وقع لك حتى خرجت عن صف الطاعة؟ ما حجتك في مواجهة الأمر الصريح؟

لكن إبليس لم يقل: عصيت. لقد أنتج فلسفة تبرر عصيانه: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾.

لم ينظر إلى الأمر، بل نظر إلى المأمور بالسجود له. ولو نظر إلى الأمر لقال: سمعنا وأطعنا. لكنه جعل آدم حجابًا بينه وبين أمر الله، ثم راح يفتش في مادة خلقه عن علة للرفض.

وهذه واحدة من أخطر حيل النفس: لا تقول للإنسان غالبًا «اعص الله» في عبارة صريحة؛ بل تصنع له تفسيرًا أخلاقيًا أو عقليًا يجعل المعصية تبدو موقفًا نبيلًا. يقطع رحمه ويسمي ذلك كرامة، ويظلم خصمه ويسميه حزمًا، ويحسد الناجح ويسمي حسده نقدًا، ويرفض الحق لأنه جاء على لسان من لا يحب، ثم يقول: إنني أدافع عن المبدأ.

هكذا تلبس الأهواء نفسها ثياب الأفكار.

كرر إبليس وصف مادة آدم: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾؛ لكنه أخذ نصف الحقيقة وترك نصفها الآخر. رأى الطين ولم ير التسوية والتكريم. نظر إلى البداية المادية وأغفل النفخة المخلوقة التي شرف الله بها آدم.

والكبر دائماً انتقائي؛ ينتقي من حقيقة الآخر ما يساعده على احتقاره، ويتجاهل ما أودع الله فيه من فضل. يرى خطاه ولا يرى حسناته، يرى ضعفه ولا يرى جهاده، يرى أصله الاجتماعي ولا يرى علمه وتقواه.

وما أكثر من يكرر خطأ إبليس حين يحاكم الناس بأجسادهم وأنسابهم ومناطقهم وأموالهم، لا بما يحملونه من حق وخُلُق! إن العنصرية والعصبية ليستا مجرد خلل اجتماعي؛ إن في أعماقهما صدى من قول إبليس: أنا أفضل بسبب مادة الخلق.

وقد كان المعيار أمامه بسيطاً: أمرٌ من الله. لكن الكبر يستطيع أن يحوّل أبسط الحقائق إلى متاهة، حتى لا يضطر صاحبه إلى أن يقول: أخطأت.

﴿قَالَ فَاحْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَحِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾

كان يظن أن امتناعه يحفظ مقامه، فإذا به يفقد المقام كله. أراد أن يصون عظمته المتوهمة من السجود، فخرج مطروداً ذليلاً.

هذه هي خسارة الكبر الكبرى: يعد صاحبه بحفظ الكرامة، ثم يجرده منها. يخوفه من الاعتذار حتى لا يصغر، فيصغر بإصراره. يمنعه من الرجوع حتى لا يهتز أمام الناس، فيهتز قدره عند الله وفي ضميره. يقول له: كيف تنحني؟ ولا يخبره أن طريق النجاة يبدأ أحياناً من الانحناء للحق.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾: مطرود مبعد. لم تطرده مادة النار، بل عصيان الأمر. فالمراتب عند الله لا تثبت بالأصول ولا بالسوابق إذا نقضها الاستكبار.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾: جزاء ممتد؛ لأن موقفه لم يكن زلة أعقبها ندم، بل تمردًا أعقبه إصرار، وإصرارًا تحوّل إلى مشروع لإغواء البشر.

وهنا يظهر الفرق بين خطيئة آدم وخطيئة إبليس: آدم وقع ثم رجع، وإبليس عصى ثم احتجّ. آدم رأى ذنبه، وإبليس رأى لنفسه حجة. ليست النجاة في ألا يخطئ الإنسان أبدًا؛ فهذا ليس شأن البشر، وإنما في ألا يجعل من خطئه عقيدة يدافع عنها.

الاعتراف بالذنب بداية آدمية مضيئة، وتبرير الذنب بداية إبليسية مظلمة.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ○ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ○ ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾

العجيب أن إبليس، وهو المطرود، يعرف أن الله ربّه: ﴿قَالَ رَبِّ﴾. ويعرف البعث: ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. لكنه يحمل هذه المعرفة بلا عبودية.

فليس كل من أقر بربوبية الله قد حقق مقتضى الإيمان، وليس كل من عرف الآخرة استعد لها. قد تستقر الحقائق في الرأس ولا تهبط إلى القلب، وقد يعرف الإنسان أنه ميت ثم يعيش كما لو أنه خالد.

طلب إبليس الإمهال، فأمهل إلى الوقت الذي قدره الله. لكن طول البقاء لم يكن علامة رضا. وهذه حقيقة ينبغي ألا تغيب: الإمهال ليس إهمالاً، وطول عمر الباطل ليس برهاناً على صحته.

قد يُمدُّ للطغيان في الزمن حتى يؤدي دوره في الابتلاء، ويستوفي ما كُتب له، ثم يؤخذ عند أجله. ومن نظر إلى اللحظة وحدها ظن أنه أفلت، ومن رأى النهاية علم أنه كان يتحرك داخل القدر، لا خارجه.

ويا للعجب! نال إبليس ما طلب، لكنه لم يستخدم العمر الممدود في التوبة، بل في توسيع الجريمة. ليست المشكلة دائماً في قصر الفرصة؛ وإنما في الوجهة التي يمضي إليها صاحبها. هناك من تُمنح له السنوات فتزيده قرباً، ومن تتحول عنده الزيادة في العمر إلى زيادة في البعد.

فالزمن لا يطهر الإنسان وحده؛ الذي يطهره هو ما يصنعه في الزمن.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

لم يقل إبليس: بما أغويتُ نفسي، بل ألقى تبعة انحرافه بعيداً عنه.
وهذه سمة إبليسية أخرى: رفض المسؤولية.

المتكبر لا يكتفي بأن يخطئ؛ بل لا يحتمل أن يكون هو المخطئ.
لا بد من متهم آخر: الظروف، والناس، والماضي، والقدر،
والبيئة. وقد تكون لهذه الأشياء آثار حقيقية، لكنها لا تلغي اختيار
الإنسان ولا تبرر استسلامه للشر.

ثم أعلن خطته: ﴿لَأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

لم يقل: سأجعل القبيح حسناً في ذاته؛ فهو لا يملك تغيير الحقائق.
لكنه يستطيع أن يغيّر طريقة عرضها للنفس. يضع على المعصية
مساحيق من الكلمات، ويختار لها أسماء محببة، ويظهر لذتها
القريبة، ويحجب عاقبتها البعيدة.

التزيين هو فن الشيطان الأكبر. فالشر لو جاء الإنسان بوجهه
الحقيقي لنفرت منه الفطرة، ولهذا يحتاج إلى زينة. الظلم يصبح
«حفظاً للمصلحة»، والخيانة «ذكاءً»، والرياء «حسن
حضور»، والغرور «ثقة بالنفس»، والانحلال «حرية»،
والتعصب «وفاء»، والسكوت عن الباطل «حكمة».

لا يخلق الشيطان رغبات الإنسان من العدم، لكنه يدخل من
خلالها، يضخمها، ويفصلها عن الميزان، ثم يقنعه أن ما يريده
هو عين ما ينبغي أن يكون.

ولذلك فإن معركة الإنسان مع الشيطان ليست دائماً مع صوت يقول له: افعَل الشر؛ بل مع زينة تجعل الشر غير مرئي في الفعل الذي يختاره.

وإذا أردت أن تعرف موضع الخطر في قرارك، فلا تسأل فقط: هل أحبه؟ بل اسأل: ماذا سيبقى منه بعد أن تزول زينته؟ وما اسمه إذا عُرض على ميزان الله بلا الألفاظ التي اخترعتها النفس؟

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾

هنا يعترف إبليس بحدود سلطانه. يريد إغواء الجميع، لكنه يعلم أن في الطريق قلباً لا يستطيع امتلاكها: ﴿عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾.

نسبهم إلى الله: ﴿عِبَادَكَ﴾؛ وكأن سر نجاتهم كامن في هذه النسبة. لم ينجوا لأنهم أشد البشر ذكاءً، ولا لأنهم لا يملكون شهوات، ولا لأنهم خارج دائرة الابتلاء؛ بل لأن عبوديتهم لله حررتهم من عبودية التزيين.

والمخلصون هم الذين اصطفاهم الله وخلّص قلوبهم له، ومن طريق الإخلاص في القصد والعمل يبلغ العبد من عناية الله بقدر ما يشاء سبحانه. فالنجاة فضل من الله، ولها أسباب من الصدق والتجرد والمجاهدة.

الإخلاص ليس مجرد ألا يراك الناس وأنت تعمل؛ بل ألا يكون في قلبك سيدٌ ينازع أمر الله. أن تسقط الحسابات الزائفة حين يظهر الحق، فلا ترفضه لأن خصمك قاله، ولا تقبل الباطل لأن حبيبك زينه، ولا تجعل رضا الناس مرآةً تحدد بها قيمتك.

المخلص يرى الله قبل أن يرى الجمهور، والمخلص يحفظه الله من أن يصير الجمهور إلهاً خفيًا في قلبه.

والشيطان يستطيع أن يزيّن، ويوسوس، ويعد، ويخوّف؛ لكنه لا يملك أن يجبر القلب. ضعفه الحقيقي يظهر أمام عبد اتصل بربه. فإذا أظلم التزيين، أضاء الذكر؛ وإذا اشتبهت الأصوات، كشف الإخلاص الصوت الدخيل.

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾

طريق الحق مستقيم، بيّنه الله وتكفل بحفظه وإيصال سالكيه إلى غايته، وكل أمر مرده إليه سبحانه، لا يخرج شيء عن قضائه وحكمه.

إن الشيطان يصنع طرقًا كثيرة؛ لأن الباطل يحتاج إلى التشتيت. أما الحق فطريق واحد في أصله: عبودية الله، واتباع لهداه، وصدق في التوجه إليه.

والاستقامة لا تعني ألا يتعثّر الإنسان، بل أن تبقى وجهته صحيحة. قد يضعف ثم ينهض، ويذنب ثم يستغفر، ويبكي من تقصيره ثم يعود. أما المنحرف حقًّا فهو الذي يبذل الطريق ثم يقنع نفسه أنه ما زال سائرًا إلى الله.

وفي قوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ﴾ حضورٌ للحقيقة، كأن الطريق قائم أمام القلب لا يحتاج إلا إلى أن يختاره. ليست الهداية لغرًا غامضًا، لكن ضجيج الهوى يجعل المستقيم يبدو معقدًا، ويجعل المنحرف يبدو مختصرًا.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾

يا لها من آية ترد للإنسان مسؤوليته وطمأنينته معًا!

ليس للشيطان سلطان قاهر على عباد الله. لا يستطيع أن ينتزع الإيمان من قلبك قسرًا، ولا أن يحرك جسدك إلى المعصية بغير اختيارك. سلطانه دعوة وتزيين ووسوسة؛ أما الاستجابة فمن الإنسان.

﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ﴾: لم يقل من أجبرته، بل من اتبعك. فالغاوي يمشي خلف الشيطان بخطواته، وقد يبدأ الاتباع صغيرًا: نظرة يُستهان بها، أو كذبة تُبرر، أو حقد يُسقى في الخفاء، أو ذنب يؤجل صاحبه التوبة منه. ثم يصبح الطريق الذي اختاره مرةً عادةً تسوقه.

ومع ذلك، فإن التعبير: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ يسكب أماناً عظيماً. من تحقق بالعبودية لله لم يُترك وحيداً في المواجهة. إن ربه ينسبه إليه، ويحفظه، ويفتح له أبواب الرجوع كلما زل.

لا تقل أمام غواية الشيطان: أنا ضعيف لا حيلة لي؛ بل قل: أنا عبد لله، وليس للشيطان على عباد الله سلطان. ثم أثبت صدق هذه العبودية بالمقاومة والاستعاذة والذكر وقطع الطرق المؤدية إلى الفتنة.

فالاستعاذة ليست جملةً يرددها اللسان ثم يسير إلى مواضع الإغواء طائعاً؛ إنها لجوء بالقلب، وحذر بالعقل، وابتعاد بالجوارح.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ٥١ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾

بعد أن زين لهم إبليس الأرض، تكشف الآيات نهاية الزينة: جهنم.

هذا هو الشيء الذي يخفيه الشيطان دائماً من الصورة. يريك أول الطريق ولا يريك آخره، يريك اللذة ولا يريك الحساب، يريك لحظة الانتصار بالظلم ولا يريك وقوفك بين يدي العدل المطلق.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾. أبواب متعددة، ولكل باب نصيب معلوم ممن اتبعوا الغواية، بحسب ما يعلمه الله ويحكم به. وكأن تعدد الأبواب

يواجه تعدد طرق الانحراف؛ فالناس لا يأتون الباطل من طريق واحد. منهم من يدخله من باب الكبر، ومنهم من باب الشهوة، ومنهم من باب الحسد، ومنهم من باب المال أو السلطة أو التقليد الأعمى.

لكن اختلاف البدايات لا يمنع اجتماع النهايات إذا كانت الوجهة واحدة.

وهنا ينبغي أن يخاف الإنسان من الباب الصغير الذي يفتحه اليوم؛ فالهاوية لا تبدأ دائماً بسقوط مفاجئ، بل بخطوة استهان بها صاحبها. وما من باب عظيم إلا وكان في أوله شقاً ضيقاً سمح له الإنسان أن يتسع.

إن السورة لا تعرض جهنم لتطفئ الرجاء، بل لتوقظ الإرادة. تخبرك بالنهاية وأنت ما زلت قادراً على تغيير الطريق. فالوعيد رحمة حين يأتي قبل وقوع العذاب، والتحذير نجاة حين يجد قلباً يصغي.

وهكذا بدأت الجولة بطين خُلق منه الإنسان، وانتهت بنار أُعدت للغاوين. وبين الطين والنار وقفت لحظة الاختيار: سجودٌ رفع الملائكة، وكبرٌ أسقط إبليس، وعبوديةٌ تحمي الإنسان، واتباعٌ يسلمه إلى الهاوية.

وليس السؤال الذي تتركه هذه الآيات في القلب: ممّ خُلقت؟

بل: لمن تسجد؟ ومن تتبع؟ وإلى أي باب تقودك خطواتك؟

الفصل الرابع

أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ الَّتِي لَا تُغْلَقُ

تأملات في الآيات (45-60)

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ﴾

بعد سبعة أبواب لجهنم، تفتح السورة فجأةً مشهداً آخر: جنات وعيون، وسلام وأمان.

وهذه طريقة القرآن في تربية القلب؛ لا يتركه في الخوف حتى ييأس، ولا يغمره بالرجاء حتى يأمن مكر الله. يسوقه بين جناحي الخشية والأمل، حتى يصل إلى ربه بقلب حي: يخاف فلا يجرؤ على المعصية، ويرجو فلا يقنط إذا وقع فيها.

لم يقل: إن المتقين كانوا بلا ذنوب، ولا إنهم عاشوا خارج التجربة البشرية؛ بل وصفهم بالتقوى. والتقوى ليست عصمةً من الضعف، وإنما يقظةٌ تمنع القلب أن يستريح إلى بعده عن الله. قد يزل المتقي، لكنه لا يتخذ زلته بيتاً؛ ينهض، ويستغفر، ويعود. يخطئ، لكن الخطأ لا يتحول في داخله إلى مبدأ يدافع عنه.

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾

جناتٍ تحيط بهم، وعيون تتدفق بالقرب منهم. وإذا كانت جهنم موعد الغاوين الذين اتبعوا التزيين الزائف، فهذه الجنة هي الجمال الذي لا يخدع، واللذة التي لا تختبئ وراءها حسرة، والامتلاء الذي لا يعقبه فراغ.

إن شهوات الدنيا تشبه ماءً مالحاً؛ كلما شرب الإنسان منه ازداد عطشاً. أما عيون الجنة فلا تترك في الروح ظمأً ولا في القلب قلقاً من الانقطاع.

ثم يأتي النداء الذي انتظرته أرواح المتقين طويلاً:

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ﴾.

سلامٌ من الله، وسلامٌ من الملائكة، وسلامٌ بين أهل الجنة، وسلامٌ داخل النفوس. لقد انتهى الصراع كله. لا مرض يتهدد الجسد، ولا موت ينتظر خلف الفرع، ولا فقد يتسلل إلى مجالس الأحبة، ولا خبر مفرع يأتي من بعيد.

﴿آمِينَ﴾: كلمة واحدة تختصر ما بحث عنه الإنسان طوال حياته.

كم بنى من الأسوار ليأمن، ثم اكتشف أن الخوف يسكن داخله! وكم جمع من المال ليطمئن، ثم صار المال نفسه مصدر قلقه! وكم أحاط نفسه بالأقوياء، ثم ظل يخشى تقلبهم عليه!

الأمن الكامل لا يوجد في دار قابلة للزوال. ما دام في الدنيا موت، فلا أمان مطلق من الفقد؛ وما دامت القلوب تتغير، فلا أمان كامل

من الخذلان؛ وما دام الجسد يضعف، فلا أمان من الألم. ولهذا ادخر الله لعباده دارًا لا يأتِيهم فيها الخوف من خلف الأبواب.

إن الجنة ليست مكان النعيم فحسب؛ إنها المكان الذي تتوقف فيه النفس عن الالتفات مذعورة وراءها.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾

قبل أن يصف السرر، طَهَّرَ الصدور. فكان أعظم نعيم الاجتماع ليس في جمال المكان، بل في سلامة القلوب التي تجتمع فيه.

لو دخل الناس أجمل القصور بصدور مملوءة بالغل، لحوّلوا القصر إلى ساحة تنافس وحسد. فالإنسان لا يتعذب بما حوله فقط؛ قد يحمل أداة عذابه في صدره. يرى نعمة أخيه فتؤلمه، ويسمع الثناء عليه فيضيق، ويجلس معه مبتسمًا بينما يخوض في داخله حربًا صامتة.

والجنة لا تقبل هذا العذاب الداخلي؛ لذلك قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا﴾.

لم يقل: أخفوا الغل، أو جامل بعضهم بعضًا؛ بل نُزِعَ الغل من جذوره. لا أقنعة في الجنة، ولا مجاملات تستر الكراهية، ولا ابتسامات تؤدي وظيفة اجتماعية بينما القلب يشتعل.

﴿إِخْوَانًا﴾: تحققت الأخوة بعد أن طهرت الصدور؛ لأن الأخوة لا تستقيم بالشعارات وحدها. قد يرفع الناس رايات الجماعة، ويكثر الحديث عن المحبة، ثم تقسمهم المنافسة على مال أو

منصب أو شهرة. إنما تُبنى الأخوة حين يحب الإنسان لأخيه الخير، ولا يرى نجاحه انتقاصاً من وجوده.

﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾.

لا يدير أحد ظهره للآخر. وجوه تتقابل، لأن القلوب لم يعد فيها ما تخجل من ظهوره. في الدنيا قد نتجنب وجهًا لأن وراءه قصة موجعة، أو نخشى عينًا لأننا نعرف ما تخفيه؛ أما هناك فالوجوه نوافذ صافية، لا خديعة وراءها.

وما أجمل أن يحاول المؤمن أن يحمل شيئاً من أخلاق الجنة إلى الأرض: أن ينزع من قلبه الغل بقدر استطاعته، وأن يفرح بخير إخوانه، وأن يجلس إليهم بوجه لا يخفي خنجراً.

ليس نزع الغل ضعفاً في طلب الحق، ولا سكوتاً عن الظلم؛ بل هو ألا تتحول مطالبتك بالحق إلى رغبة في الانتقام، وألا تسمح لظلم الآخرين أن يصنع منك نسخة أخرى منهم.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾

لا تعب، ولا خروج.

وهذان هما العيبان اللذان يلاحقان كل نعيم دنيوي: إما أن يتعب الإنسان في تحصيله وحفظه، وإما أن يخرج منه أو يخرج النعيم عنه. يبني البيت ثم يرهقه ترميمه، ويحصل على المنصب ثم يتعب في حراسته، ويجد الحبيب ثم يعيش قلق الفراق.

أما الجنة فنعيم بلا نصب، وبقاء بلا نهاية.

﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾: لن يأتي أمرٌ بإخلاء الجنة، ولن تنتهي مدة الإقامة، ولن يتحول الخلود إلى ذكرى. لقد أخرج الإنسان الأول من الجنة بعد الزلّة، وظل أبنائه يحملون في أرواحهم حنينًا غامضًا إلى دار الأمان؛ فإذا عاد المتقون إليها، عادوا عودةً لا خروج بعدها.

وهذه الكلمة تمنح النعيم معناه الكامل؛ فلو لا الخلود لظل الخوف يعكر صفوه. ليست قيمة العطية في جمالها فقط، بل في أمن بقائها. وقد جمع الله لأهل الجنة كمال الأمرين: جمالًا لا ينفد، وبقاءً لا ينقطع.

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ○ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴿

بعد ذكر الجنة، يأتي خطاب مباشر إلى الرسول ﷺ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾.

سمّاهم عباده قبل أن يخبرهم بمغفرته. حتى المذنب الذي أثقلتة خطاياه لم يُطرد من باب النسبة ما دام باب التوبة مفتوحًا. يقول الله له: أنت عبدي، وأنا الغفور الرحيم؛ فلا تجعل الذنب يقنّعك أنك صرت أبعد من أن تعود.

﴿أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: تتكرر ضمائر التأكيد، كأن الآية تريد أن تنتزع اليأس من أعماق القلب. أنا الذي أغفر، وأنا الذي أرحم؛ فلا تقس مغفرتي بضيق البشر، ولا رحمتي بحدود خيالك.

قد يغلق الناس ملفك عند أول زلة، ويحبسونك داخل صورة قديمة، ويذكرونك دائماً بأسوأ ما فعلت؛ أما الله فيفتح لك باباً تصير بعده عبداً آخر، إذا صدقت توبتك. يغفر الذنب، ويرحم الضعف، ويبدل السيئات حسنات لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

لكن الآية التالية تقف بجوار الأولى:

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

حتى لا تتحول الرحمة في نفس الغافل إلى تصريح مفتوح بالمعصية. فالله غفور لمن عاد، وليس في مغفرته حجة لمن أصر. ورحيم بعباده، وليس من الرحمة أن يُسوَّى بين الظالم والمظلوم، ولا بين من أفسد وتكبر ومن تاب واتقى.

إن بعض الناس يذكر المغفرة كلما أراد أن يواصل ذنبه، وينسى العذاب؛ ويذكر آخرون العذاب كلما رأوا مذنباً، وينسون المغفرة. أما القرآن فيجمع الاسمين والحقيقتين في موضع واحد، حتى يستقيم القلب.

لا تيأس، فالله غفور رحيم. ولا تغتر، فعذابه هو العذاب الأليم.

وبين اليأس والغرور يولد السير الصحيح: رجاء يدفعك إلى الباب، وخوف يمنعك من اللعب على عتبه.

﴿وَتَبَيَّنَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾

من الخبر عن صفات الله إلى خبر ضيف إبراهيم عليه السلام؛ وكأن القصة ستجعلنا نرى الرحمة والعذاب وهما يتحركان في مشهد واحد: بشارة لإبراهيم، وإنذار لقوم لوط.

دخل الملائكة على إبراهيم فقالوا: ﴿سَلَامًا﴾. كلمة أمن، لكن إبراهيم شعر بالوجل حين رأى ما أثار استغرابه من حالهم، كما بينت مواضع أخرى من القرآن أنهم لم يأكلوا من الطعام الذي قرَّبه إليهم.

إن إبراهيم، خليل الرحمن، خاف. والخوف الطبيعي لا يناقض الإيمان؛ فالأنبياء بشر، تعرض لهم مشاعر البشر، لكنهم لا يجعلون الخوف قائدهم بعيداً عن الله.

قال بصراحة: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾. لم يتصنع رباطة لا يشعر بها، ولم يلبس قناع القوة. وفي الاعتراف الصادق بالمشاعر طهارة؛ فالإنسان لا يُشفى من خوف ينكر وجوده، ولا يعالج ضعفاً يتظاهر بأنه لا يعرفه.

وقد يدخل على الإنسان شيء في صورة مجهولة فيوجل منه، بينما يكون في داخله خير لم يتوقعه. كم من حدث استقبلناه بالخوف ثم اكتشفنا أنه يحمل بشارة! وكم من باب تغير حسبناه تهديدًا، فإذا هو بداية حياة أخرى!

نحن نخاف لأننا نرى مدخل القصة، ولا نرى الصفحة التي يكتبها الله بعدها.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾

﴿لَا تَوْجَلْ﴾: أول ما قدموه إليه كان الطمأنينة، ثم البشارة. فالقلب الخائف يحتاج أن يأمن قبل أن يتمكن من استقبال الخبر الجميل.

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾: لم تكن زيارتهم تهديدًا، بل كانت تحمل حلمًا تأخر حتى بدا في المقاييس البشرية بعيدًا: غلام عليم.

لم تأت البشارة في ريعان الشباب، حيث تنتهي الأسباب الظاهرة؛ بل جاءت في الكبر، حين تعلم الأسباب البشرية أنها لا تملك الكلمة الأخيرة. أراد الله أن تكون الهبة صافية الدلالة عليه، حتى لا تُنسب إلى قوة الإنسان وحدها.

إن تأخر العطاء لا يعني سقوط الوعد من خزائن الله. قد يؤخره سبحانه حتى تنقطع عيون القلب عن الأسباب، ويظهر أن المستحيل الذي حسبه الإنسان جدارًا ليس أمام القدرة الإلهية إلا وهماً.

﴿يَغْلَامٍ عَلِيمٍ﴾: لم تبشره الآية بولد فحسب، بل لمحت إلى مستقبله: غلام يحمل العلم. فالله حين يعطي لا يمنح مجرد العدد؛ قد يهب في فرد واحد أثر أمة، وفي ابن واحد امتداد رسالة، وفي لحظة واحدة تعويض سنوات من الانتظار.

والعطاء الرباني لا يُقاس بموعده، بل بما يحمل من البركة.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُ مُنِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ﴾

لم يكن استفهام إبراهيم شكًا في قدرة الله، وإنما دهشة بشرية أمام غرابة وقوع البشارة مع الكبر. كأنما يقول: بأي أمر عجيب تبشرونني بعدما بلغ بي العمر ما بلغ؟

إن الإيمان لا يلغي الدهشة. قد يوقن المؤمن أن الله على كل شيء قدير، ثم يرتجف حين يرى القدرة تنزل على تفاصيل حياته. هناك فرق بين أن تعرف أن الله يفعل العجائب، وأن تجد العجبية تطرق بابك أنت.

﴿مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾: تعبير لطيف، كأن الكبر شيء جاء فمس الجسد، وأثقل الحركة، وأخبر الإنسان أن مواسم معينة قد مضت. لكن المواسم البشرية ليست حدودًا للقدرة الإلهية.

وقد نضع نحن أعمارًا لأحلامنا: نقول فات وقت التعلم، أو التغيير، أو الإنجاز، أو التوبة، أو بدء حياة أنقى. ثم تأتي قصة إبراهيم لتقول: ما دام الله قادرًا، فلا تجعل التقويم البشري إلهاً يقرر ما يمكن وما يستحيل.

ليس معنى ذلك أن كل ما يشتهيهِ الإنسان سيقع؛ فالله يختار بحكمته. ولكن معناه ألا تجعل ضعف الأسباب حكمًا على قدرة رب الأسباب.

﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾

﴿بِالْحَقِّ﴾: ليست البشارة أمنية عاطفية، ولا مواساةً جميلة بلا حقيقة؛ إنها خبر صادر بأمر الله، ولذلك تحمل في داخلها ضمانها.

ثم جاء النهي: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾.

القنوط ليس مجرد حزن؛ إنه حكم سيئ على المستقبل، كأن الإنسان يقول إن أبواب رحمة الله لن تفتح له. ولذلك كان القنوط خللاً في معرفة الله قبل أن يكون ألماً في النفس.

قد تنتقطع الأسباب كلها، ولا تنتقطع خزائن الله. قد تُغلق أبواب الأرض، ويبقى في السماء باب لم يخطر لك. وقد يتأخر الجواب حتى تبلغ الروح حافتها الأخيرة، ثم يأتي من جهة لم تحسبها.

لكن النهي عن القنوط لا يعني أن يعيش الإنسان في أوهام بلا عمل؛ بل أن يعمل ولا يعبد حساباته، وأن يدعو ولا يحد قدرة الله بتجاربه السابقة، وأن يظل في قلبه موضع فارغ لاحتمال الرحمة.

القنوط يقول: لأن الأمر لم يحدث حتى الآن، فلن يحدث أبداً. أما الإيمان فيقول: ما لم ينته العمر، لم تنته إمكانيات التحول، وما دام الله هو المدبر، فالغيب أوسع من توقعاتي.

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾

يجيب إبراهيم عليه السلام بما يكشف رسوخ معرفته بربه: أنا لا أقنط؛ فمن يقنط من رحمة ربه إلا من ضل عن معرفته وطريقه؟

قال: ﴿مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾، ولم يقل من تحقق أمنيته. فقد تتجلى الرحمة في العطاء، وقد تتجلى في المنع، وقد تظهر في البشارة، وقد تختبئ زمناً داخل البلاء. المؤمن لا يختصر رحمة الله في الصورة التي اختارها لنفسه.

وإضافة الرب إلى العبد: ﴿رَبِّهِ﴾، تحمل دفناً خاصاً. الرب هو الذي يخلق ويربي ويدبر، وينقل عبده من حال إلى حال. فكيف يقنط ممن ظل يربيه بالنعمة الظاهرة والخفية منذ كان لا يعرف كيف يسأل؟

إن القانط يقرأ لحظة واحدة وينسى السيرة كلها. يرى بابًا أُغلق وينسى عشرات الأبواب التي فُتحت له من قبل. يرى ما حُرِم منه ولا يرى ما حُفظ به. ولو استعاد تاريخ رحمة الله معه، لخجل من يأسه.

وفي الآية عزاء لكل نفس يطاردها شعور بأنها أفسدت كل شيء: ما دام فيك نفس يعود، فباب الرحمة لم يغلق. لا تجعل الشيطان يستخدم ذنبك مرتين: مرة حين أوقعك فيه، ومرة حين يقنعك أن الله لن يقبلك بعده.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾

بعد أن استقبل البشارة وعرف حقيقة الضيوف، سأل عن مهمتهم الأخرى. لقد أدرك أن الملائكة لم يأتوا للبشارة وحدها، وأن وراء الزيارة أمرًا عظيمًا.

﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾: ما شأنكم الخطير الذي أرسلتم من أجله؟

وهنا تنتقل القصة من بيت يملؤه الرجاء إلى مدينة استحققت العذاب. الملائكة أنفسهم يحملون رحمةً إلى إبراهيم، ويحملون عدلاً إلى قوم لوط. فالرحمة والعدل لا يتناقضان في أمر الله؛ بل كلاهما موضوع في موضعه بحكمة.

قد يكون الحدث الواحد بشرى لإنسان ونهايةً لآخر، فتحًا للمظلوم وقصمًا للظالم. ونحن نراه من زاوية صغيرة، أما الله فيدبر المشهد كله بعلمه.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۖ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ إِلَّا أَمْرًا تَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾

وصفهم بكلمة تختصر الطريق الذي سلكوه: ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾. لم تكن زلة فردية عابرة، بل إجرامًا معلنًا أصروا عليه، وتناصروا في حمايته، وواجهوا دعوة نبيهم بالرفض.

لكن وسط المجتمع الفاسد كان هناك بيت مؤمن: آل لوط. وحين جاء العذاب لم يعجز الله أن يميز المؤمن من المجرم.

﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

هذه طمأنينة لمن يعيش غريبًا في بيئة يعلو فيها الفساد: لا يضيعك الله في الزحام، ولا يعاملك بجريرة المجتمع إذا ثبتَّ على الحق. قد تعيش بين قوم تشيع فيهم المعصية، لكن اسمك مكتوب في قائمة أخرى، إذا أنكرت الباطل ولم تكن شريكًا فيه.

ليس عليك أن تملك تغيير المدينة كلها حتى تنجو؛ لكن عليك ألا تسمح للمدينة أن تغير الحقيقة في داخلك.

ثم يأتي الاستثناء المؤلم: ﴿إِلَّا أَمْرًا تَهُ﴾.

كانت قريبة من نبي، تسكن بيته، وترى صدقه، وتعيش بجوار الوحي؛ لكن القرب المكاني لم يتحول إلى قرب إيماني. لم ينفعها اسم الزوج، كما لا ينفع الإنسان نسب ولا أسرة ولا جماعة إذا اختار هو طريقاً آخر.

إن الهداية لا تنتقل بالوراثة، والنجاة لا تُمنح بالمجاورة. تستطيع أن تعيش قرب الصالحين، وتسمع كلامهم، وتحفظ مصطلحاتهم، ثم يبقى قلبك في الجهة الأخرى.

وفي المقابل، قد يولد الإنسان في بيئة بعيدة عن الخير ثم يختار طريقه إلى الله، فلا يحول أصله بينه وبين النجاة.

﴿قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾: من الباقين مع القوم الذين سينزل بهم العذاب. كانت في بيت النجاة بجسدها، لكن ولاء قلبها كان مع الهالكين؛ فحُشرت في المصير مع من أحبت طريقهم.

إن الإنسان لا يُعرف حقاً بالمكان الذي يقف فيه، بل بالجهة التي يميل إليها قلبه. قد يكون في صف المؤمنين صورةً، وفي صف الباطل ولاءً ومودةً ومصلحةً.

وهكذا تختتم هذه الجولة بمفارقة عميقة: شيخ كبير تأتيه بشارة الحياة من حيث لا يحتسب، وامرأة تسكن بيت نبي ثم تختار طريق الهلاك. فلا العمر يمنع عطاء الله، ولا القرابة تضمن النجاة.

بين إبراهيم وامرأة لوط تتضح حقيقة المصير: ليس المهم كم تبدو الأسباب قريبة أو بعيدة؛ بل أين يقف قلبك من الله.

فَمَنْ تعلق برحمة ربه لم يحكم عليه الكبر بالعقم الأبدي، ومن أعرض عن هدايته لم ينفعه أن تكون النبوة تحت سقف بيته.

الفصل الخامس

المدينة التي أسكرتها الشهوة

تأملات في الآيات (77-61)

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾

غادر الملائكة بيت إبراهيم عليه السلام، حيث تركوا وراءهم بشارة الحياة، واتجهوا إلى بيت لوط عليه السلام، حيث يحملون خبر النهاية.

هم أنفسهم، ولكن الرسالة تختلف باختلاف من تستقبله: رحمة للمؤمن، وعذاب للمجرمين. وليس في هذا تناقض؛ فالمطر الذي يحيي أرضاً قد يهدم بناءً متداعياً، والنور الذي يطمئن المبصر يكشف للمختبئ ما كان يريد ستره.

دخلوا على لوط في صورة لم يعرفها، فقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾؛ أي لا أعرفكم، وأجد في قدومكم ما يثير القلق. ولعل خوفه لم يكن على نفسه وحدها، بل على ضيوفه من قوم يعرف ما استقر في نفوسهم من فساد.

كان النبي يعيش في مدينته غريباً وهو بين أهلها، يحمل طهارة لا تعرف المدينة قيمتها، ويرى المنكر يتجاوز الأفراد حتى يصبح هوية اجتماعية محمية. وما أشد محنة الصالح حين لا

يكون الشر حادثاً يمكن عزلها، بل يصبح عرفاً، ويُتهم من ينكره بأنه الخارج عن المألوف!

الفساد حين ينتشر لا يكتفي بأن يُمارَس؛ بل يطالب الناس أن يعترفوا به، وأن يصمتوا عن قبحه، وأن يسموا إنكاره عيباً. يريد من المؤمن ألا ينجو بنفسه فقط، بل أن يتنازل عن حقه في الاعتراض.

وكان لوط يحمل همّ الرسالة وهمّ الضيافة معاً؛ يخشى أن يقع ضيوفه تحت أذى قومه، وهو لا يعلم بعد أن الذين يخاف عليهم هم رسل القوة التي جاء أمرها بإنهاء هذه المدينة.

وهكذا نخاف أحياناً على أشياء يحفظها الله بأقوى مما نتصور؛ لأننا نراها بعيون عجزنا، ولا نعرف ما أودع فيها من أسباب الحفظ.

﴿قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكُمْ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

قالوا له: لسنا ضيوفاً مجهولين كما ظننت، بل جنناك بالأمر الذي ظل قومك يشكون فيه ويجادلونك بسببه.

كانوا يمترون في العذاب؛ لأن الزمن مرَّ ولم يقع. ظنوا أن تأخر الوعيد إلغاءً له، وأن الأيام التي يعيشونها في أمن شهادةً على براءتهم. وهذه من أقدم مغالطات الغافلين: يخلطون بين الإمهال والرضا، وبين تأخر الحساب وسقوطه.

قد يظلم الإنسان فلا يُؤخذ في يومه، فيحسب أن الظلم مقبول. ويكذب فلا ينكشف فوراً، فيظن أن الكذب مهارة. ويستمر المجتمع في فسادهِ سنوات، فيتعامل مع بقاء أحواله كأنه برهان على استحالتها أن تتغير.

لكن مرور الوقت لا يحوّل الباطل حقاً، ولا يسقط وعد الله.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾: جاء الحق الذي جادلوا فيه، لا فكرةً يمكنهم السخرية منها هذه المرة، بل قضاءً واقعاً. فما دام الوعيد خبراً، يملك الإنسان مساحة للتوبة أو الجدل؛ فإذا صار الحدث حاضراً انتهى الكلام.

وكم من حقيقة يعرفها الناس نظرياً، لكنهم لا يعيشون على مقتضاها لأنهم لم يشعروا بثقل وقوعها! يعرفون الموت، ولكنهم يتعاملون معه كخبر يخص الآخرين. يعرفون الحساب، لكنه يظل عند بعضهم لفظاً بعيداً. فإذا حضر الموت لم تعد معرفته ثقافةً، بل صار الحقيقة كلها.

السعيد من يتلقى الحق وهو رسالة قبل أن يلقاه واقعاً لا رجعة فيه.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

لا مكان للشك؛ فالساعة التي كانوا يستبعدونها قد جاءت. وما يقوله الله آتٍ لا محالة، وإن وقف بين الوعد ووقوعه عمر كامل أو قرون طويلة. الزمن لا يضعف صدق الخبر الإلهي؛ إنما يكشف استعجال الإنسان.

﴿فَاسْرُ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾

جاءت خطة النجاة واضحة: خروجٌ في الليل، ومضيٌّ إلى الوجهة التي أمرهم الله بها، ومنعٌ من الالتفات.

﴿فَاسْرُ بِأَهْلِكَ﴾: لم يعد الإصلاح ممكناً في المدينة التي أغلقت أبوابها في وجه الحق وأصرت على إجرامها؛ فأصبح الواجب إنقاذ أهل الإيمان منها. ليست الإقامة في المكان فضيلةً في ذاتها إذا صار البقاء فيه تسليمًا للنفس والرسالة إلى الهلاك.

وفي حياة الإنسان مدناً معنوية يجب أن يغادرها: عادة أفسدت روحه، أو بيئة تجره كل يوم إلى الأسفل، أو علاقة تجعل المعصية مألوفةً في عينه. وقد يظل ينتظر أن يتغير كل شيء حوله، بينما أمر نجاته يبدأ بخطوة خروج.

والخروج مؤلم؛ فحتى الأماكن الفاسدة تصنع بينها وبين ساكنيها ألفة خفية. يعتاد الإنسان ما يؤذيه، ويشتاق أحياناً إلى قيده لأنه يعرف شكله، ويخاف الحرية لأنها أرض جديدة.

لهذا جاء الأمر: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾.

إنها ليست مجرد حركة جسدية؛ إنها تربية للقلب في ساعة المفاصلة. لا تلتفتوا إلى مدينة صدر حكم الله فيها، ولا تعلقوا أرواحكم بما أمرتم بمغادرته. فالجسد قد يمضي، والقلب يظل مقيماً في الخلف.

وكم من إنسان تاب بقدمه ولم يتب بقلبه! خرج من المعصية، لكنه ظل يرويها بحنين؛ وترك علاقة مؤذية، لكنه ظل يراقب بابها؛ وابتعد عن بيئة أفسدته، لكن صورها بقيت تسكن خياله. إنه يمضي إلى النجاة ملتفتاً إلى الهلاك.

ليس كل ماضٍ جديرًا بأن نحفظ به. بعض الصفحات لا تُحترم إلا بأن تُغلق، وبعض الأبواب لا تُحسن وداعها إلا بالألا تعود إلى النظر وراءك.

﴿وَاتَّبِعْ أَذْوَارَهُمْ﴾: سار لوط وراء أهله؛ يراعهم، ويتفقدهم، ويضمن ألا يتخلف أحد منهم. وهذه صورة للقيادة الرحيمة: القائد لا يبحث دائماً عن مقدمة الصف ليُرى، بل قد يسير في آخره حتى يحمي أضعف من فيه.

ثم قال: ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.

ليست النجاة خروجًا فقط، بل اتجاه. قد يهرب الإنسان من الباطل من غير أن يعرف إلى أين يمضي، فتخطفه متاهة أخرى. أما الهداية فتقول له: اخرج من هذا، وامض إلى حيث يأمرك الله.

التوبة ليست فراغًا تتركه المعصية؛ إنها طريق جديد يُملأ بالطاعة.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾

أبلغ لوط بالحكم الحاسم: أن آخر هؤلاء مستأصل عند الصباح، فلا يبقى منهم أحد ممن حق عليهم العذاب.

﴿مُصْبِحِينَ﴾: كان الصبح يقترب، لكنه لن يكون لهم بداية يوم جديد؛ بل نهاية التاريخ كله. وما أشد المفارقة بين الصباح الذي يرمز عادةً إلى الحياة، والصباح الذي جاءهم حاملاً الانقطاع!

كم من إنسان ينام واضعًا خطط الغد، ولا يعلم أن الصباح قد يأتي ولا تأتي معه فرصته. يضبط مواعيده، ويؤجل اعتذاره، ويرتب مصالحه، ويحسب أن امتلاك خطة للغد يعني امتلاك الغد نفسه.

لكن الغد وعد بشري، لا ملك شخصي.

وفي قوله: ﴿ذَابِرٌ هُوَ لَاءٍ مَقْطُوعٌ﴾ إعلان أن الحضارات لا تُقاس بما شيدته فقط، بل بما أقامت عليه بناءها الأخلاقي. قد تتسع المدينة، وتقوى مؤسساتها، وتتنظم شوارعها، ثم يكون في داخلها عطب يقطع دابرها.

الفساد الأخلاقي حين يتحول إلى هوية جماعية لا يبقى شأنًا فرديًا معزولاً؛ إنه يصيب الثقة والأسرة والفطرة والعدل، ثم يأكل المجتمع من داخله وهو يظن نفسه متقدمًا.

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

يا لقسوة هذه الكلمة في موضعها!

كانوا يستبشرون بقدوم الضيوف؛ لا لأنهم أرادوا إكرامهم، بل لأن نفوسهم المريضة رأت فيهم فرصة لممارسة الفاحشة. لقد صار الشر عندهم بشارة، وانقلب ميزان الفطرة حتى أصبح ما ينبغي أن يبعث الخجل يبعث الفرح.

هذه هي المرحلة الأشد خطرًا في رحلة الانحراف: ألا يفعل الإنسان الذنب وهو يشعر بوخزه، بل يستبشر بفرصته. أن تنطفئ المقاومة الداخلية، فيصبح القبيح جميلًا، والفضيحة احتفالًا، والمنكر مادةً للتفاخر.

في بداية المعصية يرتجف القلب، ثم إذا أصر صاحبها خفت الارتجافة، ثم تختفي، ثم قد يصل إلى الدفاع عن المعصية

والدعوة إليها والسخرية ممن ينتزعه عنها. وهكذا لا يكتفي الذنب بأن يأخذ من الإنسان طاعته؛ بل يسعى إلى أن يأخذ منه اسمه الصحيح أيضاً.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾، بينما كان دابرهم قد قُضي عليه، وصباحهم الأخير يقترب. كانوا يضحكون في اللحظة التي كانت النهاية تتجه إليهم.

وليس كل فرح علامة خير؛ قد يفرح الإنسان بما يكون سبب هلاكه، ويحزن مما يحمل نجاته. إن العبرة ليست بحرارة الشعور، بل بحقيقة الشيء الذي أثاره. فما أكثر الأفراح التي كانت مقدمات ندم، والآلام التي كانت بدايات نجاة!

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾

وقف لوط عليه السلام في وجه مدينة كاملة، يستنجد فيهم بما بقي من مروءة: هؤلاء ضيوفي، فلا تفضحوني فيهم. ثم ردَّ الأمر إلى أصله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

بدأ بحق الضيافة الذي قد تفهمه أعرافهم، ثم ارتفع بهم إلى حق الله الذي ينبغي أن يردعهم. لكن حين تفسد الفطرة، لا يبقى للعرف السليم سلطان، وحين يموت تعظيم الله لا تنقذ الإنسان كثرة القوانين من التلاعب.

﴿فَلَا تَفْضَحُون﴾: كان يشعر أن الاعتداء على ضيفه فضيحة له؛ لأن الكريم يرى أمان ضيفه جزءاً من أمانته. ليس الشرف أن يحفظ الإنسان نفسه وحده، بل أن يصبح وجوده مأمناً لمن لجأ إليه.

ثم قال: ﴿وَلَا تُخْرُون﴾. لقد جمعوا عليه ألم الدعوة وألم العجز وألم التهديد في بيته. وكان هو الفرد الذي يحمل معيار الطهارة في وجه جمهور سكران.

وهنا يظهر أن الحق لا يُقاس بعدد الواقفين معه. قد تمتلئ المدينة بالباطل، ويكون الحق ساكناً في بيت واحد. وقد يصرخ الجمهور كله بفكرة، ولا يمنحها الصراخ ذرةً من الصواب.

إن الوحدة على الحق أشرف من كثرة تتواطأ على الفساد.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

لم يكتفوا برفض نصيحته؛ بل ذكّروه أنهم سبق أن منعه من حماية الناس أو استضافتهم. كأن المدينة أصدرت قانونها الخفي: لا تتدخل بيننا وبين شهواتنا، ولا تمنح أحداً حمايةً من فسادنا.

هذه هي طبيعة الباطل حين يستقوي؛ لا يطلب من الصالح أن يتركه فحسب، بل ينهائهم أن يحمي غيره منه. يريد احتكار المجال كله، ويعدُّ وجود بيت طاهر تحدياً لسلطانه.

﴿أَوَلَمْ نُنْهَكَ﴾: انقلبت الموازين؛ صار المجرمون يnehون النبي، وكأنهم أصحاب الحق في إصدار الأوامر. وحين يطول سلطان الفساد يتوهم أنه المرجعية، فيحاسب الفضيلة لأنها لم تستأذن منه قبل أن تتكلم.

وقد يشعر صاحب الحق بالدهشة: كيف صار المنكر يوبخ المعروف؟ وكيف تحول المفسد إلى قاضٍ، والمصلح إلى متهم؟ لكن انقلاب الأدوار في خطاب الناس لا يغير حقيقة الأدوار عند الله. قد يكتب الباطل لائحة الاتهام، لكنه لا يملك الحكم الأخير.

﴿قَالَ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾

أرشدهم لوط عليه السلام إلى الطريق المشروع الطاهر في النساء، وسمّاهن بناته على ما يذكره المفسرون من أن النبي بمنزلة الأب لقومه، أو أشار إلى بناته على وجه النكاح المشروع؛ أي: دونكم ما أحل الله لكم إن كنتم تريدون قضاء الشهوة في طريقها الفطري الحلال.

لم يكن يدعوهم إلى فوضى أخرى، وإنما يردُّ الشهوة إلى بابها الذي شرعه الله. فالإسلام لا ينكر وجود الغريزة، ولا يطلب من الإنسان أن يصير كائنًا بلا حاجات؛ بل يهذبها، ويمنحها الطريق الذي يحفظ الفرد والمجتمع.

المشكلة ليست في أن للإنسان شهوة، بل في أن تتحول الشهوة إلى سلطة تعيد تعريف الفطرة والحق بحسب ما تريد.

إن الحضارة لا تقوم بقمع الغرائز قمعاً يلغي الإنسان، ولا بإطلاقها إطلاقاً يهدمه؛ بل بميزان يجعل الحاجة خادمة للحياة، لا سيِّداً عليها.

لكن القوم لم يكونوا يبحثون عن إشباع حاجة في طريق مشروع؛ كانوا يريدون المخالفة نفسها، فقد استقرت لذة التمرد في نفوسهم حتى لم يعد الحلال يجذبهم.

وهنا يبلغ المرض ذروته: حين لا يريد الإنسان الشيء لحاجته إليه، بل يريد كسر الحد لأنه حد.

﴿الْعَمْرُكَ إِنَّهُمْ فِي سَكَرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

يقسم الله بحياة نبيه محمد ﷺ تشريعاً له: **﴿الْعَمْرُكَ﴾**. إن أولئك القوم كانوا يتخبطون في سكرتهم، لا يبصرون الطريق ولا النهاية.

لم يكونوا سكارى بخمر تُشرب فحسب؛ بل بسكرة الشهوة. وقد تسكر الفكرة كما يسكر الشراب، وتسلب الشهوة من العقل قدرته على رؤية العواقب، ويسكر الحقد صاحبه حتى لا يرى في خصمه إنساناً، ويسكر المال صاحبه حتى يظن أن كل شيء قابل للشراء، وتسكر الجماعة الفردَ حتى يفعل وسطها ما كان يستحي أن يفعله وحده.

﴿فِي سَكْرَتِهِمْ﴾: كأنهم غارقون داخلها، تحيط بهم من الجهات كلها. لم تعد الشهوة عارضاً يمر بهم، بل صارت مناحاً يسكنون فيه، ويرون العالم من خلاله.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: يترددون متحيرين على غير بصيرة. فالذي يظن نفسه قد تحرر من كل قيد قد يكون في الحقيقة أشد الناس تيهًا؛ لأنه فقد العلامات التي تحدد له الطريق.

إن الحدود التي وضعها الله ليست أسوار سجن، بل علامات نجاة على حافة الهاوية. ومن حطمها باسم الحرية لم يلغِ الهاوية؛ إنما ألغى التحذير منها.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾

جاء الصباح، وجاءت معه الصيحة.

قبل قليل كانوا يستبشرون، والآن أخذتهم الصيحة. مسافة قصيرة بين الضحك والهلاك، وبين الشعور بالأمان وسقوط كل شيء.

﴿مُشْرِقِينَ﴾: عند شروق الشمس، في الوقت الذي تبدأ فيه المدينة حركتها اليومية، انتهت حركتها كلها. لعل كل واحد منهم كان يظن أن أمامه يومًا كاملاً، لكن اليوم لم يكن له.

إن لحظات التحول الكبرى لا تستأذن العادة. قد يكون كل شيء في مظهره طبيعياً: شمس تشرق، وطرق مألوفة، وبيوت قائمة؛ ثم يأتي أمر الله فيكشف أن الثبات الذي اطمأن إليه الإنسان كان مؤقتاً.

ولا تنقض الآية قانون الرحمة الذي سبق: ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ بل تكشف أن الرحمة ليست إلغاءً للعدل. لقد أرسل إليهم نبي، وأُنذروا، وفتح لهم باب الرجوع، فأصروا حتى جاء الوقت الذي تنتهي فيه المهلة.

العذاب لا يأتيهم لأن الله منعهم التوبة، بل لأنهم رفضوا أبوابها حتى أغلقت بانتهاء الأجل.

﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾

انقلبت المدينة.

وما وقع في عمرانها كان صورةً مادية لما سبق أن وقع في قيمها؛ فقد قلبوا الفطرة قبل أن تُقلب ديارهم، وجعلوا أسفل الشهوة أعلى من سلطان العقل والوحي، فانتهى الانقلاب المعنوي إلى انقلاب ظاهر.

﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾: لا يبقى شيء عالياً إذا رفعه الباطل. قد يصعد الإنسان بالمال أو النفوذ أو القوة، لكنه إذا بنى علوه على العصيان حمل في أساسه قابلية السقوط.

الارتفاع الحقيقي ليس في كثرة ما يملك المرء، بل في الجهة التي يرفعه إليها عمله عند الله. وكم من منخفض في أعين الناس هو عالٍ في ميزان السماء، وكم من عالٍ على منابر الدنيا تنتظر باطنه لحظة الانكشاف!

ثم أمطر الله عليهم حجارةً من سجيل؛ فجاءهم العذاب من فوقهم بعدما انقلبتم أرضهم من تحتهم. أحاط بهم المصير الذي طالما استبعدوه، فلم تنفعهم المدينة، ولا كثرتهم، ولا اجتماعهم على المنكر.

إن اجتماع الناس على الباطل لا يصنع حصانةً منه. قد يتواطأ مجتمع كامل على تغيير أسماء الأشياء، لكنه لا يملك تغيير حقائقها في ميزان الله.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾

لم يقل: إن في ذلك حكايةً للتسلية، بل ﴿لَآيَاتٍ﴾؛ علامات تقود من المشهد إلى السنّة، ومن الخراب الظاهر إلى علته الباطنة.

لكن ليس كل من رأى الآثار قرأها. إنها آيات ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾؛ لأصحاب النظر المتأمل الذين يفسرون في العلامات ويعبرون من السطح إلى العمق.

قد يقف شخصان أمام الخراب نفسه؛ يراه أحدهما حجارةً صامتة، ويراه الآخر رسالةً عن مصير الغرور. الأول يسأل: كيف بُنيت هذه المدينة؟ والآخر يضيف: ولماذا سقطت؟

والمعرفة النافعة لا تكتفي بوصف الأشياء، بل تقرأ دلالتها الأخلاقية. قد يعرف الإنسان عمر الصخور ومساحة المدن، ولا يعرف شيئاً عن نفسه. وقد يقرأ تاريخ الهالكين، ثم يكرر أسباب هلاكهم بثياب حديثة.

المتوسم لا يقرأ قوم لوط ليشعر بالتفوق عليهم؛ بل ليفتش في قلبه عن البدايات الصغيرة للعمى: أين تسكره شهوته؟ وأين يبرر ما يعرف قبحه؟ وأين يرفض الحق لأن الجماعة من حوله ترفضه؟ العبرة التي لا تتحول إلى محاسبة قد تصبح نوعاً آخر من الغفلة.

﴿وَإِنَّهَا لِبِسْبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾

كانت آثار ديارهم على طريق معروف يمر به الناس، ظاهرةً غير غائبة. ليست العبرة مدفونةً في مكان لا يبلغه أحد؛ إنها على السبيل، يراها المسافرون.

ولكن قرب الدليل لا يضمن حضور الاعتبار. قد يمر الإنسان على الآية كل يوم حتى تصير مألوفة، ثم يفقد قدرته على سماعها. فالاعتیاد قد يحجب أكثر مما يحجب البعد.

كم من إنسان يعيش بين المقابر ولا يتذكر الموت، ويمر بوجوه المرضى ولا يشكر العافية، ويرى سقوط المتكبرين واحدًا بعد آخر ثم يبني حياته على الكبر نفسه!

الطريق قائم، والآثار باقية، لكن المطلوب قلب يتوقف عن العبور قليلًا ليسأل.

وليس السبيل المقيم طريقًا جغرافيًا فقط في معنى الاعتبار؛ فآثار الأمم موجودة في كل زمن. كم من قوة كانت تملأ السمع والبصر ثم أصبحت خبرًا! وكم من أسماء أُرعبت الناس ثم تحولت إلى سطور باهتة!

العالم كله طريق تحفُّ به شواهد الفناء، ولكن الإنسان يعبر مسرعًا إلى الوهم التالي.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

خُصَّ المؤمنون؛ لأن الإيمان يمنح الحدث معناه الكامل. يرى المؤمن في المصير عدل الله، وفي نجاة لوط وأهله رعايته، وفي تأخر العذاب حلمه، وفي وقوعه قدرته.

إنه لا يقرأ القصة ليملأ ذاكرته، بل ليصح طريقه.

يرى أن بيتًا واحدًا مؤمنًا يمكن أن يبقى نقيًا وسط مدينة فاسدة، وأن الكثرة لا تغير طبيعة الباطل، وأن الله يعرف عباده بين الزحام، وأن النجاة تحتاج أحيانًا إلى خروج بلا التفات.

والآية للمؤمنين؛ لأنهم يعرفون أن هذه الوقائع ليست أساطير منفصلة عن حاضرهم، بل مرايا. ليست مدينة لوط مجرد مكان في التاريخ؛ إنها نموذج يتكرر كلما سكرت أمة بشهوتها، وضيقَت على المصلحين، وحوّلت المنكر إلى قانون اجتماعي، ثم ظنت أن كثرة الموافقين تعفيها من الحساب.

وتتركنا القصة أمام سؤال لا يمكن الفرار منه:

حين يستبشر أهل المدينة بما يغضب الله، ويصبح الصالح غريبًا، ويتحول الانحراف إلى عرفٍ محميٍّ؛ هل نقف مع ضجيج المدينة، أم نخرج مع لوط في ظلام الليل، نمضي حيث يأمر الله، ولا نلتفت؟

الفصل السادس

بيوتٌ في الجبال لم تمنع الصيحة

تأملات في الآيات (78-86)

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ۝ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

تمضي السورة من أمة إلى أمة، كأنها تقلب صفحات كتاب واحد؛ تختلف الوجوه والأماكن، لكن الكلمة التي كُتبت في أعلى الصفحات كلها واحدة: الظلم لا يبني نجاةً دائمة.

وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام، أصحاب الشجر الملتف والبساتين، الذين شاع فيهم الظلم والتطيف والفساد. كانت حولهم الخضرة، لكن أرواحهم كانت مجدبة. عاشوا بين الأشجار، ولم تثمر فيهم دعوة الحق.

وهنا مفارقة موجعة: قد يكثر الجمال حول الإنسان، ويبقى قلبه قبيحاً؛ وقد تتسع عليه الأرض بالخيرات، ويضيق هو عن أداء حق المنعم. ليست وفرة الطبيعة ضماناً لطهارة النفس، كما أن الحضارة المادية لا تنتج وحدها حضارةً أخلاقية.

قد يمتلك المجتمع الأسواق المزدهرة، والطرق الواسعة، ووسائل الحساب الدقيقة، ثم يقوم اقتصاده على غش خفي،

واحتكار جشع، وميزان يميل دائماً إلى جانب القوي. وكلما تطورت أدوات المعاملات من غير أن يتطور الضمير، أصبح الظلم أكثر قدرةً على التخفي.

لقد كان مرض قوم شعيب متصلاً بالميزان؛ لا بالميزان الذي توزن به السلع وحدها، بل بالميزان الداخلي الذي يحدد قيمة العدل في القلب. فإذا اختل الميزان في الضمير، صحَّ التاجر أرقامه وأفسد حقوق الناس، وأتقن المسؤول تقاريره وبدد الأمانة، وارتدى الفساد ثياب النظام.

وقد وصفهم الله بكلمة: ﴿الظَّالِمِينَ﴾.

والظلم في جوهره وضع الشيء في غير موضعه: أن يوضع المال فوق الإنسان، والمصلحة فوق الحق، والقوة فوق الأمانة، وأن يُعطى القريب ما يستحقه الأكفأ، وأن يحجب القادر حق الضعيف لأنه لا يخشى صوته.

وما من مجتمع يختل فيه الميزان إلا ويبدأ في بناء نهايته، وإن كانت الأسواق مكتظةً والحدايق مورقة.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

والانتقام الإلهي عدل منزّه عن انفعالات البشر وأهوائهم؛ فهو سبحانه الحكم العدل الذي يعاقب بعد قيام الحجة واستحقاق العقوبة. لم يأخذهم قبل الرسالة والإنذار، وإنما بعد أن ظلموا وأصروا.

وفي هذا عزاء للمظلوم الذي يرى ميزان الأرض معطّلاً: قد يفلت الظالم من محكمة البشر، وقد يشتري الصمت، ويكتب الرواية لصالحه، لكنه لا يخرج من سلطان العدل الإلهي. إن للكون ربّاً لا يُخدع بالتقارير، ولا تلتبس عليه المظالم، ولا يحجبه نفوذ الظالم عن أن يرى دمة المقهور.

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

كانت ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة على طريق واضح يأتّم به المسافرون ويقصدونه، ويستدلون بمعالمه. صارت نهايات الأمم علامات على الطريق، بعد أن كانت تلك الأمم تظن أنها تصنع الطريق لغيرها.

يا له من انقلاب! من ظنوا أن بساتينهم وأسواقهم دليل نجاحهم، صار خرابهم دليلاً لغيرهم. والذي لم يرد أن يكون آيةً في الطاعة، قد يصير آيةً في العقوبة.

والإنسان لا يختار أن يكون لوجوده دلالة أو لا تكون؛ إنما يختار نوع الدلالة. إما أن يترك وراءه أثراً يهدي، وإما أن يترك مصيراً يحذّر.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾

هنا تصل السورة إلى الاسم الذي حملته: ﴿أَصْحَابُ الْحَجَرِ﴾، قوم ثمود الذين أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام.

نسبتهم إلى الحجر توحى بالمكان والقوة والثبات؛ فهم أصحاب تلك الديار الصخرية، ينحتون الجبال ويتخذونها بيوتًا. لكنهم حين كذبوا رسولًا واحدًا عُدُّوا مكذبين للمرسلين جميعًا؛ لأن رسالة الأنبياء واحدة في أصلها، ومن رفض الحق الذي جاء به نبي فقد رفض المنبع الذي جاءت منه الرسالات كلها.

قد يظن القارئ أن تسمية السورة بالحجر تكريم للمكان، لكن السياق يحوّل الاسم إلى سؤال: ماذا صنع الحجر لأصحابه حين كذبوا؟

لماذا تُسمى سورة كاملة باسم قوم هلكوا؟

لأن الحجر لم يكن مجرد موضع؛ كان فلسفةً في الأمان. لقد بنى القوم ثقتهم على شيء يظن الإنسان أنه لا يلين: الجبل. نحتوا في داخله بيوتًا، فأصبح الجدار جزءًا من كتلة الأرض نفسها. لعلمهم نظروا إلى مساكن غيرهم المبنية من مواد أضعف، ثم شعروا بالتفوق: نحن لا نبني إلى جوار الجبل؛ نحن نسكن في جوفه.

ولكن السورة جاءت لتقول: ما كل من دخل الحجر دخل الحفظ.

قد تحيط بك الصخور من كل جانب، وتبقى مكشوفًا أمام أمر الله. وقد تكون بلا سور إلا يقينك، فيحفظك الله من حيث لا تحتسب. فالأمان ليس خاصيةً مستقلة في المادة؛ إنه منحة من الله، يهبها عبر الأسباب أو يحجبها مع وجودها.

ولعل اختيار اسم «الحجر» للسورة يواجه المادية المتضخمة في النفس الإنسانية؛ ذلك الوهم الذي يجعل المرء يظن أن ما يلمسه أصلب مما يؤمن به، وأن الجدار أقوى من الدعاء، وأن المال أحفظ من التوكل، وأن النفوذ أرسخ من التقوى.

لكن السورة بدأت بقرآن محفوظ، ثم وصلت إلى حجر لم يحفظ أصحابه. كلمة من الوحي تكفل الله بحفظها فعبرت القرون، وصخرة عظيمة اتكأ عليها أصحابها فلم تمنع عنهم صيحة واحدة.

هنا تنكشف المفارقة المركزية في السورة: البقاء ليس للأصلب مادةً، بل لما أراد الله له البقاء.

﴿وَأَتَيْنَاهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

لم يهلكوا لقلة الدلائل؛ فقد آتاهم الله آياته، وكانت ناقة صالح آيةً ظاهرةً بينهم. لكنهم أعرضوا.

والإعراض أعمق من الجهل. الجاهل قد يتعلم، والحائر قد يسأل، أما المعرض فقد بلعته الحقيقة ثم أدار وجهه عنها. لم يقل إنهم لم يفهموا الآيات، بل قال: ﴿عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾؛ والوجهة هنا أخلاقية قبل أن تكون معرفية.

قد يعرف الإنسان أن في الأمر حقًا، لكنه لا يمنحه وقتًا للنظر. يملأ حياته بالضجيج حتى لا يسمع، ويملأ يومه بالمشاغل حتى لا يقف، ويقول إنه لم يقتنع، بينما الحقيقة أنه لم يسمح لقلبه أن يقترب.

وهذا إعراض العصر أيضًا: ليس دائمًا رفضًا صريحًا للقرآن، بل قد يكون وضعه على رف عالٍ مع كامل الاحترام الشكلي، ثم إدارة الحياة كلها بعيدًا عنه. يُزَيَّن المصحف، وتُعطَّر صفحاته، ويُتلى في المناسبات، لكن لا يُسمح له أن يعيد بناء الموازين، أو يحاكم الأهواء، أو يحدد معنى النجاح والخسارة.

إن إكرام النص مع تعطيل سلطانه صورة رقيقة من صور الإعراض.

وقد تأتي الآية للإنسان في موقف محدد: يعرف أن عليه أن يعتذر، أو يعيد حقًا، أو يقطع معصية، أو يقف مع مظلوم؛ لكنه يشيح عنها لأنه يخشى كلفة الاستجابة. وهنا لا يعود القرآن خبرًا بعيدًا عن ثمود؛ يصبح الناقاة الواقعة في طريقه، والآية التي يتحدد مصيره بطريقة معاملته لها.

ليس السؤال: كم آية قرأت؟ بل: كم آية سمحت لها أن تغيّرك؟

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾

هذه هي صورة الحضارة في ذروتها: إنسان يقف أمام الجبل، لا يكتفي بأن يتكيف معه، بل ينحته ويحوّله إلى بيت. معرفة هندسية، وقوة بدنية، ومهارة في التشكيل، وقدرة على إخضاع الصخر للحاجة البشرية.

والقرآن لا ينكر إنجازهم؛ يذكره بوضوح. لكن الإنجاز المادي لم ينقذهم من الإفلاس الروحي. استطاعوا نحت الجبال، ولم يستطيعوا نحت الكبر من نفوسهم. لَبَنُوا الصخر، وبقيت قلوبهم أشد منه قسوة.

وهنا يكشف القرآن خللاً يتكرر في الحضارات: قد يتقدم الإنسان في السيطرة على الأشياء، ويتأخر في السيطرة على نفسه. يخترق الفضاء، ولا يعبر المسافة بين شهوته وضميره. يبني آلهة دقيقة، ويترك في داخله فوضى من الحسد والطمع والغرور.

ليست الحضارة أن نعرف كيف نبني البيت فقط؛ بل أن نعرف أي إنسان سيسكنه.

فإذا سكن البيت إنسانٌ فقد ميزانه، صارت التقنية قوةً إضافية في يد الخل. العلم يوسع القدرة، لكنه لا يحدد وحده الغاية. قد يستخدمه المؤمن في عمارة الأرض، ويستخدمه الطاغية في توسيع الدمار.

﴿بُيُوتًا آمِنِينَ﴾: كانوا يشعرون بالأمن. والآية تصف حالهم النفسي كما تصف مساكنهم. لم يبنوا بيوتًا قوية فقط؛ بل أنتجت القوة في داخلهم يقينًا زائفًا بأنهم بعيدون عن الخطر.

والأمن الزائف أخطر من الخوف؛ لأن الخائف يبحث عن النجاة، أما الأمن بوهمه فلا يستعد لشيء.

ما أكثر «الجال» التي ينحت فيها الإنسان الحديث بيوته: حسابات مصرفية، وتأمينات، وعلاقات نافذة، وتقنيات مراقبة، وخطط طويلة الأمد. وهذه أسباب مشروعة إذا أخذت بقدرها، لكنها تتحول إلى صنم حين يظن الإنسان أنها تمنحه حصانة مستقلة عن الله.

خذ بالأسباب كلها، لكن لا تتم في داخلها نومة المتأله على الغد. السبب باب، وليس ربًا. والجدار حماية بإذن الله، لا من دونه.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾

مرة أخرى يأتي الصباح حاملاً النهاية.

أخذت قوم لوط الصيحة مشرقين، وأخذت أصحاب الحجر مصبحين. وكأن السورة تقصد أن تصدم وهمًا عميقًا: ليس كل صباح فرصة جديدة لمن استنفد فرصه في الإعراض.

استيقظ الكون، ولم يستيقظوا. أقبل الضوء، وانطفأت حياتهم. كانت البيوت ثابتة، لكن أصحابها لم يبقوا. فلم يحتج أمر الله إلى هدم فلسفتهم حجرًا حجرًا؛ جاءت صيحة واحدة، فانتهى كل ما احتموا به.

الصيحة شيء لا ترده الجدران؛ يدخل أثرها حيث ظنوا أنهم محصنون. وفي اختيارها لعذابهم معنى يواجه غرورهم: أنتم الذين بنيتم حمايتكم من الأشياء المادية المرئية، جاءكم ما لا تستطيع صخوركم صده.

وكم من أمة تبني دفاعاتها ضد خطر تعرفه، ثم تأتي نهايتها من ثغرة لم تضعها في الحساب! لأن العقل البشري، مهما اتسع، لا يحيط بكل وجوه المستقبل.

لهذا لا يكون التوكل تركًا للأسباب، بل اعترافًا بحدودها. نبني ونتحصن ونتداوى ونخطط، ثم نعلم أن الحافظ هو الله، وأن الخلل قد يدخل من حيث لا نرى.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

لم تقل الآية إن مكاسبهم لم تكن موجودة، بل إنها لم تُغن عنهم. كانت هناك بيوت، وثروات، ومهارات، ومكانة؛ لكن حين جاءت اللحظة الحاسمة فقدت الأشياء وظيفتها.

والقيمة الحقيقية لما نكسبه نُعرف عند الشدائد الكبرى، لا في ساعات الرخاء. ما قيمة مال لا يشتري لحظةً من العمر حين ينتهي الأجل؟ وما قيمة شهرة لا تمنح صاحبها حسنةً واحدة حين يقف للحساب؟ وما قيمة بيت صمد أمام الريح والمطر، ولم يصمد ساكنه أمام أمر الله؟

﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تشمل كل ما ظنوا أنه يضيف إلى قوتهم. لكن الإنسان قد يمضي حياته يجمع إضافات خارجية، بينما ينقص هو من الداخل. يكبر رصيده ويصغر ضميره، تتسع داره ويضيق قلبه، يزداد حضور اسمه ويغيب معنى وجوده.

ثم تأتي النهاية، فتسقط الإضافات كلها، ويبقى الإنسان بما قدّم.

إن الآية لا تذم الكسب المشروع؛ بل تحرره من الادعاء. اكسب، وابن، واعمّر، وأتقن؛ لكن اسأل: ماذا يغني هذا عني عند الله؟ وهل أحمل من كسبي إلى الآخرة شيئاً، أم أحمله فوق قلبي حتى يتركني عند أول حدود القبر؟

المكسب الذي لا يتحول إلى شكر وعدل وإحسان قد يزيد ما حولك، ولا يزيدك أنت.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ
لَآتِيَةٌ فَاصْغَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾

بعد مشاهد الهلاك والديار المنقلبة والصيحة التي قطعت أصحاب
الحجر، ترفع السورة النظر مرة أخرى إلى السماوات والأرض:
هذا الوجود كله خُلق بالحق.

ليس الكون عبثاً، ولذلك لا يمكن أن تكون حياة الإنسان عبثاً.
وليس الوجود لعبةً بلا نتيجة، ولذلك لا يمكن أن يستوي في نهايته
من عمّر بالعدل ومن ملأ الأرض ظلماً.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: الحق في أصل الخلق، والحق في نظامه، والحق
في غايته، والحق في الحكم الذي ينتهي إليه. قد يظهر الباطل
على سطح الأحداث، لكنه لا يملك جذوراً في بنية الوجود. إنه
طارئ، وإن طال زمنه؛ أما الحق فهو النعمة الأصلية التي خُلقت
عليها السماوات والأرض.

وحين ينحاز المؤمن إلى الحق، فهو لا ينضم إلى رأي ضعيف
بين آراء متنافسة؛ بل ينسجم مع حقيقة الكون. قد يكون قليلاً في
الأرض، لكنه يقف في الجهة التي قامت عليها السماء.

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾.

ولأن الخلق بالحق، فلا بد من الساعة. لو انتهت الحياة عند
التراب، وبقيت مظالم لا تُرد، ودماء لا يُقتص لها، وتضحيات

لا تُعرف، لظل المشهد ناقصًا في فهم الإنسان. لكن الساعة آتية لتكتمل الحقيقة، ويظهر ما كان مستورًا، وتعود الموازين إلى استقامتها الكاملة.

والساعة آتية، لا احتمالية معلقة، ولا فكرة رمزية؛ إنها وعد الله وخبره. وكل ما تسميه الآن حاضرًا سيصير ماضيًا، وكل ما تراه بعيدًا في أمر الآخرة سيصبح الحاضر الوحيد.

ثم يأتي توجيه يبدو للوهلة الأولى مفاجئًا:

﴿فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾.

ما دامت الساعة آتية، وما دام الكون قائمًا بالحق، فلا تحمل في قلبك عبء الانتقام الشخصي من كل من أساء إليك. دع للعدل الإلهي مجاله، وامض في رسالتك بقلب لم يفسده أذى الآخرين.

والصفح الجميل هو الذي لا يصاحبه أذى ولا منٌّ ولا تعبير؛ صفحٌ ينبع من قوة الروح، لا من العجز عن استرداد الحق. وهو هنا توجيه للنبي ﷺ في مرحلة من الدعوة لها أحكامها، وليس إلغاءً للعدل المشروع ولا إسقاطًا لحقوق المظلومين. فقد يجتمع الصفح في مقامه، والعدل في مقامه، ولكل موضع حكمته.

الجمال في الصفح أن ينظف قلبك من سم الإساءة، من غير أن تسمي الظلم عدلاً أو تتخلى عن حماية من يجب عليك حمايته. أن ترفض أن يعيش خصمك في داخلك بعد أن ابتعد عنك، وأن تمنعه من تحويل جرحك إلى نسخة من أخلاقه.

كم من مظلوم هزم ظالمه في الخارج، ثم ظل الظالم منتصراً في داخله؛ يسكن ذاكرته، ويوجه مشاعره، ويفسد عليه لحظات السكينة. والصفح الجميل تحريرٌ للنفس من هذا الأسر.

إنك تصفح لا لأن الإساءة صارت حسنة، بل لأن ربك خلق السماوات والأرض بالحق، ولأن الساعة آتية، ولأن الحساب ليس معلقاً بقدرتك المحدودة على الانتقام.

ومن أيقن أن كل شيء سيُعرض على العدل المطلق، استطاع أن يضع بعض أثقاله عن قلبه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾

يختم هذا المقطع باسمين يملآن القلب يقيناً: ﴿الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

الخالق: كثير الخلق، عظيم القدرة عليه، يخلق ما يشاء على ما يشاء. الذي خلق آدم من صلصال، والجان من نار، والسماوات ببروجها، والأرض برواسيها، لا يعجزه أن يعيد الخلق للساعة، ولا أن يخلق من الضيق فرجاً، ومن الانكسار بدايةً أخرى.

والعليم: يعلم خلقه، ونياتهم، وجرحهم، وطاقتهم، ومآلاتهم. يعلم ما خفي خلف الصفح من ألم، وما وراء الصمت من صبر، وما وراء القوة الظاهرة من ضعف يستغيث به.

قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ فأضاف الرب إلى نبيه ﷺ إضافة عناية وتثبيت. إن الذي يواجه سخرية المكذبين ليس متروكًا في ميدانهم؛ ربُّه هو الخلاق العليم. يخلق له من المخارج ما لا يخطر له، ويعلم من حاله ما لا يحتاج معه إلى شرح.

وإذا اجتمع الإيمان بقدرة الله وعلمه، هداً القلب: فهو سبحانه قادر أن يغير الحال، وعلیم بالوقت الذي يصلح فيه التغيير. لا يعجزه ما تطلب، ولا يغيب عنه ما تحتاج؛ فإن أعطى فبعلم، وإن أحر فبعلم، وإن فتح طريقًا لم تتوقعه فبقدرته.

وهكذا تختم قصة أصحاب الحجر بالحقيقة التي عجزوا عن إدراكها: ظنوا أن القوة في قدرتهم على نحت الجبل، ولم يعلموا أن القوة كلها للخلاق الذي خلق الجبل وخلق أيديهم.

وعرفوا أسرار الصخر، لكنهم أعرضوا عن العليم الذي يعرف أسرار الصدور.

فبقيت جبالهم شواهد على مهارتهم، وبقي هلاكهم شاهدًا على أن المهارة حين تنفصل عن الهداية تستطيع أن تنحت للإنسان بيتًا عظيمًا، لكنها لا تستطيع أن تنحت له طريقًا إلى النجاة.

الفصل السابع

السَّبْعُ الْمَثَانِي ودواء الصدر الضيق

تأملات في الآيات (87-99)

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾

بعد أن عرضت السورة خزائن الأشياء كلها عند الله، جاءت إلى أعظم ما أعطيه النبي ﷺ: السبع المثاني والقرآن العظيم.

والسبع المثاني هي سورة الفاتحة؛ سبع آيات تتكرر في الصلوات، ولا يملها المؤمن؛ لأنها ليست كلاماً يُستنفد معناه، بل نبعاً يعود إليه القلب كلما استبد به ظمأ الطريق. يثني بها العبد على ربه، وتُثنى في التلاوة، وتكرر فلا تفقد جدتها؛ لأن حاجات الروح التي تخاطبها لا تنتهي.

في الفاتحة خريطة الوجود كلها: ربُّ يستحق الحمد، ورحمة تحيط بالعالمين، ويوم دين ينتظر الخلائق، وعبودية تستقيم بها الحياة، واستعانة يتحرر بها الإنسان من وهم قوته، وطريق مستقيم، ونماذج بشرية انتهت إلى النعمة أو الغضب أو الضلال.

سبع آيات، لكنها تضع الإنسان في موضعه الصحيح من الكون.

حين يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يتعلم أن النعمة ليست يتيمَةً بلا منعم. وحين يقول: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، يتذكر أن العالم، على قسوته الظاهرة، واقع تحت ربوبية الرحمن. وحين يقول: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، يعرف أن التاريخ لن ينتهي بانتصار الظالم في مشهد عابر. وحين يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، يحرر إرادته من كل سيد زائف. وحين يقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، يعترف أن العبودية نفسها لا تُطاق إلا بعون الله. ثم يطلب الهداية، كأنه لم يهتد من قبل؛ لأن الطريق يحتاج في كل خطوة إلى نور جديد.

إن تكرار الفاتحة ليس تكرارًا للألفاظ، بل تكرار لإعادة الروح إلى مركزها. فالحياة تبعثر الإنسان؛ يأتي إلى الصلاة محملاً بالأسواق والأخبار والمخاوف والخصومات، فتأخذه الفاتحة من شتاته وتضعه مرة أخرى أمام ربه.

وإذا كانت السورة قد ذكرت سبعة أبواب لجهم، فإنها تذكر النبي ﷺ بسبع من المثاني؛ وكأن على الضفة الأخرى من أبواب الغواية آيات تفتح للعبد أبواب الهداية. هناك أجزاء مقسومة للغاوين، وهنا سورة تقرأها الأمة في كل صلاة، لنلا تضل طريقها إلى الله.

ثم قال: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾.

عظمة القرآن ليست مستمدةً من كثرة أتباعه، ولا من اعتراف الثقافات به، ولا من زخرفة المصاحف؛ إنه عظيم لأن الله وصفه بالعظمة. عظيمٌ في مصدره، ونظمه، ومعانيه، وهدايته، وأثره، وما يفتحه للإنسان من معرفة بربه ونفسه ومصيره.

وقد يكون في يد الإنسان القرآن العظيم، ثم يظل يبحث عن العظمة في أشياء صغيرة: عدد المتابعين، وثناء الناس، وموقع في مجلس، وقرب من صاحب نفوذ. يحمل الوحي الذي خاطب الأجيال، ثم يحزن لأن عابراً لم يلتفت إليه.

إن من عرف قيمة ما آتاه الله، صغرت في عينه أشياء كثيرة طالما أتعب نفسه في مطاردتها.

لم يقل الله لنبيه ﷺ: لقد آتيناكم مالا، وآتيناك أقل منه؛ بل وضع العطاءين في ميزانهما الصحيح: أوتيت القرآن العظيم. وأي ملك يقارن بكلام الله؟ وأي متاع دنيوي يمنح صاحبه ما تمنحه آية واحدة إذا فتحت في قلبه باب اليقين؟

القرآن ليس تعويضاً معنوياً للفقراء عن دنيا الأغنياء؛ إنه الغنى الذي يكشف فقر الدنيا نفسها.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

بعد تذكيره بالعطية الكبرى، جاء النهي: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾.

فالقلب قد يعرف قيمة ما عنده، ثم تُغريه المقارنة بالنظر إلى ما عند الآخرين. والنظر هنا ليس مجرد رؤية عابرة، بل مدّ العين؛ إطالة التأمل فيما في أيدي الناس حتى تتعلق به النفس، ويبدأ ما لديك في الانكماش داخل شعورك.

العين نافذة، لكنها قد تصبح يدًا باطنة تمتد إلى ما ليس لك. ترى متاع غيرك، ثم تنسج الخيالات حوله، وتتخيل أن حياته كاملة لأنه يملك الجزء الذي تفتقده. لا ترى خوفه ولا فواتيره النفسية ولا ما يُحرم منه؛ ترى الواجهة وحدها، ثم تقارنها بكواليس حياتك كلها.

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾: أصنافًا من الناس أعطوا أنواعًا من متاع الحياة. ووصفه بالمتاع يضعه في حجمه: شيء يُنتفع به زمنيًا ثم يزول. ليس كل من مُتّع مكرّمًا بذلك المتاع، ولا كل من قل نصيبه منه مهانًا.

المتاع اختبار، كما أن الحرمان اختبار. قد يُبتلى الإنسان بالعطاء أشد مما يُبتلى بالمنع؛ لأن النعمة تدخل عليه في صورة محبوبة، فلا ينتبه إلى سؤالها الأخلاقي: ماذا ستفعل بي؟ وهل توسع يدي وتضيّق قلبي؟ وهل تجعلني شاكرًا أم مستعليًا؟

والنهي عن مد العين ليس دعوة إلى ترك الطموح أو الزهد في عمارة الدنيا، بل حماية للقلب من أن يجعل رزق الآخرين مقياساً لكرامته. اعمل لتحسن حياتك، لكن لا تسمح لما في يد غيرك أن يسرق منك رؤية ما في يدك.

وإذا كان الله قد أعطاك معنى تهتدي به، فلا تبعه في داخلك مقابل مظهر تتزين به.

ثم قال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

لا تحزن بسبب إعراضهم وتكذيبهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ فقد بلغت وأقمت الحجة. وفي العبارة تكريم لقلب النبي ﷺ، فقد كان يحزن على من رفضوا الإيمان، لا لأنهم منعوه مكسباً شخصياً، بل لأنه يرى المصير الذي يسرون إليه.

القلب الرحيم يتألم لمن يعاديه إذا علم أنه يهلك نفسه. وهذه مرتبة تتجاوز الانتصار للذات؛ أن ترى في خصمك إنساناً ضل قبل أن تراه عدواً أذاك.

لكن الرحمة تحتاج إلى ميزان أيضاً؛ فلا يتحول الحزن على الناس إلى استنزاف يمنع الداعية من مواصلة الطريق. لست مكلفاً أن تفتح القلوب قسراً، ولا أن تحمل على ظهرك نتائج اختيارات الآخرين. عليك البيان والصدق والرحمة، أما الهداية فبيد الله.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

صورة رقيقة مأخوذة من الطائر حين يخفض جناحه لصغاره؛ قرب ورحمة وحماية، بلا استعلاء. المؤمنون الذين لا يملكون زخارف الدنيا يستحقون أن يجدوا في قلب النبي ﷺ مأمناً ورفقاً.

اخفض جناحك، ولا تخفض الحق. تلطف بالناس من غير أن تزيف لهم الطريق، وارحم ضعفهم من غير أن تجعل الضعف فضيلة، واقترب منهم قرب المربي الذي يريد لهم النهوض.

ومن عجيب البناء أن الله نهى نبيه عن مد العين إلى متاع أولئك، وأمره بخفض الجناح لهؤلاء. فلا تمد نظرك إلى أهل الدنيا إعجاباً بما عندهم، ولكن مد رحمتك إلى أهل الإيمان وإن قل ما في أيديهم.

إن الناس قد يخفضون أجنتهم للأغنياء ويرفعونها على الضعفاء؛ يتلطفون حيث المنفعة، ويتكبرون حيث لا يخشون خسارة شيء. أما ميزان النبوة فيقلب هذه الأخلاق: لا تُفتن بمن يملك، وارفق بمن آمن.

والقيادة الإيمانية ليست منصةً يرتفع بها صاحبها فوق الناس، بل جناحاً ينخفض ليظلّ لهم.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾

عرّف الله وظيفة الرسول ﷺ في كلمة واضحة: نذير مبين.

النذير لا يصنع الخطر، بل يكشفه. حين يحذر الطبيب من مرض، لا يكون هو الذي أوجد المرض؛ وحين يحذر الوحي من النار، لا يكون وعيده تشاؤماً، بل رحمةً تمنح الإنسان فرصة تغيير الطريق.

﴿الْمُبِينُ﴾: إنذار واضح، لا لغز فيه ولا تلبيس. فالنجاة لا ينبغي أن تُعَلَّقَ بمعلومة مستترة عن الناس؛ لذلك أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وبيّن الطريق.

والوضوح أمانة. قد يميل بعض الناس إلى تخفيف الحقيقة حتى لا يخسروا رضا الجمهور، فيقدمون دليلاً بلا تكليف، ورحمةً بلا حساب، وإيماناً لا يغيّر شيئاً من طريقة الحياة. لكن النذير المبين لا يخيف الناس ليملكهم، ولا يخفي عنهم الخطر ليرضوا عنه؛ يقول الحق برحمة، ويجمع الصدق والجمال.

إن الداعية الذي يحب الناس حقاً لا يخدرهم بعبارات مريحة وهم يسировن إلى الهاوية. الرحمة ليست أن تقول لكل إنسان إن طريقه صحيح، بل أن تدله على الصحيح من غير تعالٍ ولا قسوة.

﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۝ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾

تأتي الإشارة إلى أولئك الذين قسّموا مواقفهم من الوحي، وجرّؤوا القرآن، فقالوا فيه أقوالاً متفرقة باطلة، أو آمنوا ببعض وكفروا ببعض على طريقة الأمم المكذبة. وأصل الصورة يكشف خطر

التعامل الانتقائي مع كلام الله: أن يُجزأ القرآن بحسب الأهواء، فيؤخذ منه ما يرضي النفس، ويُعزل ما يطالبها بالتغيير.

﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾: أجزاء متفرقة، لا يتلقونه بوصفه حقيقةً متكاملةً تصنع التصور والضمير والحياة.

وهذا المرض لا يقتصر على من كذَّب القرآن صراحةً؛ قد يتسلل إلى بعض المنتسبين إليه. يأخذ أحدهم آيات الرحمة ويلغي آيات المسؤولية، أو يتمسك بأحكام الظاهر ويهمل العدل والرحمة، أو يطلب من القرآن ما يدعم موقفه السياسي أو الاجتماعي، ثم يصمت عما يحاكم سلوكه هو.

يبحث في القرآن عن سلاح لخصمه، لا عن مرآة لنفسه.

وقد يجعل الإنسان القرآن أجزاءً حين يحصره في الموت ولا يسمح له أن يقود الحياة، أو يقرأه للبركة ولا يصغي إلى تكليفه، أو يعظ به الآخرين ولا يعرض عليه قلبه. يفتح المصحف ليجد ما يؤكد ما قرره مسبقاً، لا ليسأل في صدق: ماذا يريد الله مني؟

القرآن بناء واحد؛ عقيدته تولّد أخلاقه، وعباداته تزكي النفس للعدل، وقصصه تشرح سننه، ووعدته ووعيده يحفظان توازن القلب. ومن اقتطع جزءاً منه وعزله عن روحه الكلية قد يحوّل الآية من هداية إلى أداة في يد الهوى.

وليس معنى تلقي القرآن كله أن كل مسلم صار مجتهدًا في تفاصيل الأحكام؛ بل أن يخضع في أصل قلبه للوحي كله، وألا يجعل هواه حاكمًا يقبل ما وافقه ويرفض ما خالفه.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قسمٌ من الله برؤوسه لنبيه ﷺ: سيسألهم جميعًا.

﴿أَجْمَعِينَ﴾: لا يسقط أحد من الحساب بسبب شهرته، ولا يختبئ في الجمهور، ولا يعفيه انتماءه إلى جماعة من مسؤوليته الفردية. قد يفعل الإنسان الخطأ لأن الجميع يفعلونه، ثم يكتشف أن كلمة «الجميع» لا تقف معه حين يُسأل وحده.

إن الجماعة تستطيع أن تخفف وخر الضمير في الدنيا، لكنها لا تلغي السؤال في الآخرة. كل امرئ يأتي بما عمل، لا بما كان شائعًا في زمنه.

﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

السؤال عن العمل؛ عن تحويل المعرفة إلى موقف، والنية إلى فعل، والقدرة إلى أمانة أو خيانة. فالحياة ليست أفكارًا معلقة في الذهن فقط، بل أعمال تكتب حقيقة الإنسان.

قد يحسن المرء الحديث عن العدل، ثم يُسأل عما صنع حين امتلك سلطةً صغيرة. ويتكلم عن الرحمة، ثم يُسأل عن الضعيف الذي كان تحت يده. ويدافع عن الدين، ثم يُسأل: هل أصلح الدين قلبك ولسانك ومعاملاتك، أم اتخذته عنواناً تحتمي خلفه؟

والسؤال الإلهي ليس طلباً لعلم غائب؛ فالله يعلم السر وأخفى، وإنما هو سؤال إقامة الحجة وإظهار العدل، حتى يرى الإنسان عمله مكشوفاً بلا الأعذار التي كان يختبئ فيها.

هذه الآية تعيد الجدية إلى اللحظات الصغيرة. فالكلمة العابرة مكتوبة، والنظرة لها وزن، والحق الذي سكت عنه داخل في قصة عملك، والرحمة التي منحتها لضعيف لن تضيع.

ليست حياتك مزدحمة بأشياء تافهة كما تظن؛ إنها ممتلئة بإجابات تكتبها الآن لأسئلة ستأتيك غداً.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾

بعد بيان أن الناس سيُسألون، جاء الأمر للرسول ﷺ أن يجهر بالدعوة ويعلمها: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾.

الصدع يحمل معنى الإظهار والبيان، وفي اللفظة قوة تشبه انشقاق الصبح عن الليل، أو صدع الصخر حتى يظهر ما وراءه. لم يعد الحق رسالة تُقال في الدوائر الضيقة وحدها؛ لا بد أن يصل صوته إلى المجال الذي احتله الباطل.

لكن الدقة في قوله: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾. فالرسول لا يصدع بهواه، ولا يجعل ذاته موضوع الدعوة؛ إنه يعلن ما أمر به. وهذه هي العصمة الأخلاقية للدعوة: أن يبقى الداعية عبدًا للرسالة، لا مالكا لها؛ يبلغها كما يريد الله، لا كما تخدم صورته.

ما أكثر من يبدأ حاملاً للفكرة، ثم ينتهي إلى استخدام الفكرة لتحمله إلى المجد الشخصي! فإذا عورض غضب لنفسه أكثر مما يغضب للحق، وإذا مُدح حسب أن مدح الرسالة مدح لشخصه، وإذا نُقد خلط بين مقام المبدأ ونقصه البشري.

أما قوله: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فينزع الأنا من مركز الدعوة. أنت مأمور، والحق أكبر منك، والله غني عنك، وفضلك أن تكون أميئاً عليه.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾: لا تجعل جدلهم يستهلكك عن مهمتك، ولا تجعل استفزازهم يختار لك جدولك وموضوعاتك. أعلن الحق، ثم لا تتحول حياتك كلها إلى رد فعل على من يرفضه.

الإعراض هنا قوة تركيز، لا هروباً من الواجب. فليس كل صوت يستحق جواباً، ولا كل شبهة تستحق أن تقضي روحك في ملاحقتها، ولا كل مستهزئ ينبغي أن تمنحه شرف تعطيلك.

بعض المعارك ينتصر فيها الإنسان حين يرفض أن تدخل جدول قلبه.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۝ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ﴾: يا لها من كلمة لو هبطت وحدها على قلب خائف لكفته!

لم يقل: دافع عن نفسك في كل لحظة، أو احسب قوة كل خصم؛ بل تكفل الله بكفاية نبيه شر المستهزئين. والذي يتولى الله كفايته لا تضره سخريه عابرة، وإن آلمته بشرياً.

قد يملأ المستهزئون المجلس ضحكاً، ويظنون أنهم أنهوا الرسالة بنكتة، لكن فوق أصواتهم وعداً لا يسمعون: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ﴾.

وسبق في أول السورة أن قال الله عن القرآن: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وهنا يقول لنبيه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾. فحفظت الرسالة، وكفي حاملها. هذه السورة سورة العناية الإلهية بما ينزل من السماء وبمن يحمله في الأرض.

لقد أراد المستهزئون أن يطفئوا صوت النبوة، فماتوا وبقي الأذان يشهد أن محمداً رسول الله، وتلّيت آيات القرآن في أطراف الأرض. لم تكن الكفاية دائماً أن يتوقف الأذى في لحظته، بل أن يفشل في بلوغ غايته الأخيرة.

قد يؤدي الباطل جسد صاحب الحق، أو يضيق عليه في مرحلة، لكنه لا يملك أن يهزم المعنى الذي يحفظه الله.

﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: الاستهزاء لم يكن خفةً اجتماعية فحسب؛ خرج من خلل في أصل الرؤية، إذ جعلوا مع الله شريكاً في العبادة. وحين يختل التوحيد تختل الموازين التابعة له؛ لأن من لم يعرف مقام الخالق لن يعرف مقام المخلوق.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

تكررت هذه الخاتمة بعد أن وردت في مطلع السورة: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. في البداية تُقال لمن ألتهتهم المتعة والآمال، وهنا تُقال للمستهزئين المشركين. وبين الموضعين رحلة كاملة من الأدلة والقصص والعبر، كأن السورة تقول: سيعلمون الحقيقة التي رفضوا أن يعلموها اختياراً، ولكن بعد أن تصير المعرفة حسرة.

هناك علم يفتح باب العمل، وعلم لا يأتي إلا بعد إغلاقه. والعاقل يختار أن يعلم الآن، حين يستطيع أن يغير المصير.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾

ما أرق هذا الخطاب!

بعد أن أمره بالصدع، لم يقل له إن القوة تعني ألا تتألم. أعلن الله علمه بضيق صدر نبيه ﷺ. فالرسول بشر كريم الحس، تؤذيه الكلمات، ويحزنه التكذيب، ويضيق صدره بما ينسبونه إليه وإلى دعوته.

لم يعاتبه الله على الضيق، بل احتوى ألمه بالعلم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾.

والمصاب قد لا يحتاج أولاً إلى حل، بل إلى أن يعلم أن ألمه مرئي. كم يخف الوجد حين يقول لك صادق: أعرف ما يؤلمك! فكيف إذا كان القائل هو الله، الذي لا يعرف ظاهر الألم فقط، بل يعلم طبقاته التي يعجز صاحبها عن وصفها؟

قد يسيء إليك أحدهم، فتتجاوز الكلمة، لكنك لا تتجاوز معناها؛ لأنها لامست جرحاً قديماً، أو صدرت ممن وثقت به، أو قلبت الحقيقة حتى جعلتك متهماً وأنت المظلوم. لا تستطيع أن تشرح للناس لماذا آلمك الأمر بهذا العمق، لكن الله يعلم.

﴿نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾: يعلم لحظة انقباض القلب، وضيق المساحة الداخلية حتى يكاد الإنسان لا يجد موضعاً يتنفس منه. يعلم الألم الذي لا يظهر في الوجه، والكلام الذي أخفاه صاحبه حتى لا يثقل على غيره.

وليس كمال الإيمان أن يتحول الإنسان إلى حجر لا يشعر؛ بل أن يجد في إيمانه طريقاً يحمل به شعوره إلى الله.

إن بعض الناس يطالب المظلوم ألا يحزن، وكأن حزنه نقص، أو يطالبه بالصبر بطريقة تنكر حقه في الألم. أما القرآن فيعترف بضيق الصدر أولاً، ثم يقدم الدواء. لا يلغي الشعور؛ يهديه.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾

هذا هو دواء الصدر حين تضيق به أقوال الناس: التسبيح والحمد والسجود.

لم يأمره أن يدخل في جدال لا ينتهي مع كل مستهزئ، ولا أن يطارد صورته في السنة الناس ليصلحها؛ بل أعاده إلى موضعه الحقيقي عند الله.

﴿فَسَبِّحْ﴾: نَزَّهَ ربك عن كل نقص، وعن أن يضيعك، أو يخرج شيء عن تدبيره، أو يكون أذى الناس أقوى من كفايته. التسبيح يعيد تصحيح صورة العالم في القلب؛ فحين يضيق الصدر يبدو الشر كأنه ملاً الأفق، فيأتي التسبيح ليقول: الله منزّه عن أن يترك الكون للعبث.

﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: لم يقل سبح فقط، بل جمع التنزيه بالحمد. تنزهه عن النقص، وتحمده على كماله ونعمه وتدبيره. قد لا تفهم الآن لماذا وقع ما وقع، لكنك تعرف من هو ربك، فتتهدي بمعرفته حين تغيب عنك حكمة التفاصيل.

والحمد في وقت النعمة جميل، لكنه في وقت الضيق عبادة تبني في الروح أفقاً جديداً. إنه لا يعني أن الألم محبوب لذاته، بل أن الله يظل محموداً في تدبيره، وأن الحياة لا تختصر في الشيء الذي آلمك.

ثم قال: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

لم يقل: اسجد مرةً عابرة، بل كن من أهل السجود؛ اجعل السجود هويتك وملجأك المتكرر. فالجبهة التي أثقلتها الأفكار تجد راحتها حين توضع لله، والقلب الذي ضاق بكلام الخلق يتسع في الخلوة مع الخالق.

في السجود تنقلب الموازين: تنخفض جبهتك في الأرض، وترتفع روحك عن أذى الناس. تعترف بضعفك، فتُعفى من عبء التظاهر بالقوة. تقول بلا كلمات: يا رب، لم أعد أستطيع حمل نفسي وحدي.

وما أجمل صلة هذه الخاتمة بقصة إبليس! لقد هلك إبليس لأنه أبى أن يكون مع الساجدين، ويُعالج ضيق قلب النبي ﷺ بأن يكون من الساجدين. هناك كان رفض السجود بداية اللعنة، وهنا يكون السجود طريق السكينة.

الكبر يقول: قف وحدك، واحمل كل شيء وحدك، ولا تنحن. أما العبودية فتقول: اسجد، ودع ربك يحمل عنك ما عجزت عنه.

وفي قوله: ﴿مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ إشارة إلى رفقة الطريق. لست وحدك؛ أنت في موكب طويل من جباه عرفت أن أعلى مواضع الإنسان هو الموضع الذي يضع فيه جبهته لله.

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾

هذه آخر آية، وآخر وصية، وآخر عتبة في الرحلة: استمر في العبادة حتى يأتيك الموت، وهو اليقين هنا.

لا وقت تتقاعده فيه الروح من العبودية. لا يبلغ المؤمن مقامًا يقول عنده: اكتفيت. ما دام القلب ينبض، فهو محتاج إلى ربه، وما دام الشيطان يزين، فالسجود ضرورة، وما دامت الدنيا تتقلب، فالعبادة مرساة.

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾: لم يقل اعبد ربًّا مجهولًا بعيدًا، بل ﴿رَبَّكَ﴾؛ الذي خلقك، ورباك، وحفظك، وعلم ضيق صدرك، وكفاك المستهزئين. العبادة ليست أداءً باردًا أمام قوة غريبة؛ إنها عودة المربوب إلى ربه، والضعيف إلى كافيهم، والتائه إلى هاديه.

﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾: الموت آتٍ إليك، لا تحتاج أن تذهب للبحث عنه. يمضي الإنسان في طريقه، والموت يمضي إليه، حتى يلتقيا في الموعد المكتوب.

فماذا يفعل إلى أن يأتي؟

يعبد.

إنها إجابة القرآن عن فراغ الانتظار الوجودي. لا تمض حياتك في مراقبة النهاية بخوف عقيم، ولا في الهروب منها بلهو متصل؛ املاً المسافة بالعبادة. وكل عمل صالح دخلته نية لله صار جزءًا من هذه العبادة: صلاة، وعدل، ورحمة، وكتابة

صادقة، ونصرة مظلوم، وسعي في رزق حلال، وإصلاح بين الناس.

العبادة ليست زاويةً ضيقةً في الحياة؛ إنها الجهة التي تأخذها الحياة كلها.

ولم يقل: اعبد ربك حتى ينكشف لك كل غيب، أو حتى تزول كل مشقة، أو حتى ينتصر لك الناس. قد تموت وفي قلبك أسئلة لم تر جوابها في الدنيا، وحقوق لم تُرد كاملة، وأمنيات بقيت في خزائن الغيب. لكنك تمضي إلى اليقين ومعك الشيء الذي لا يضيع: عبوديتك لله.

إن الثبات ليس أن تمر بالعبادة في موسم وجداني ثم تتجاوزها؛ بل أن ترافقك حتى اللحظة الأخيرة. فالقلوب لها إقبال وإدبار، والظروف تتغير، والحماسة تخفت، ولكن الرب هو الرب، والعبودية هي العهد.

وحين يأتي اليقين، تسقط الحجب. يرى الإنسان ضالة ما كان يتنافس عليه الناس، وعظمة اللحظات التي وقف فيها بين يدي الله، ويتمنى لو أن كل أنفاسه كانت ذكرًا وكل خطاه قربًا.

فطوبى لمن جاءه اليقين وهو ساجد القلب، مستقيم الوجهة، لم ينقطع عن الباب.

خاتمة الكتاب

من الحجر إلى الحفظ

بدأت السورة بكتاب محفوظ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ومرّت بقوم احتموا بالحجر فلم يحفظهم:

﴿وَكَانُوا يَنْحِثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾.

ثم انتهت بعبدٍ يحفظ قلبه في التسبيح والسجود والعبادة:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ
الْيَقِينَ﴾.

وهنا يكتمل الخيط الجامع: ليست النجاة في أن تبني حول نفسك حجراً، بل في أن تدخل في حفظ الله. والحفظ لا يعني أن تُعفى من الألم؛ فقد ضاق صدر النبي ﷺ، وهو أحب الخلق إلى الله. وإنما يعني أن الأذى لن يملك النهاية، وأن السخرية لن تهزم الرسالة، وأن ضيق الصدر سيجد في السجود متسعاً.

أرتنا السورة أن القرآن قد يُستهزأ به لكنه يبقى، وأن الحضارة قد تنحت الجبال ثم تزول، وأن الأعين قد تُفتَح لها أبواب السماء فلا تبصر إذا أغلقت القلوب، وأن خزائن كل شيء عند الله، فلا

ينبغي للإنسان أن يمد عينيه إلى متاع زائل وينسى العطاء العظيم الذي بين يديه.

وأعادتنا إلى أصلنا من الطين، كيلا نخوض معركة إبليس القديمة فنستعلي بمادة أو نسب أو مال. وكشفت أن أخطر ما يفعله الشيطان ليس أن يجبر الإنسان على الشر، بل أن يزينه له، وأن عباد الله المخلصين لا سلطان له عليهم.

ثم فتحت باب الرجاء:

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وأقامت إلى جواره ميزان الخوف:

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

وسارت بنا بين بيت إبراهيم الذي دخله الملائكة بالبشارة، وبيت لوط الذي دخلوه بالنجاة، ومدن المجرمين التي دخلوها بالعذاب؛ لنعلم أن الأمر كله لله، وأن الحدث الواحد يفتح لكل قلب الباب الذي اختاره قبل وصوله.

وفي النهاية لم تقدّم السورة للنبي ﷺ قلعةً من الحجر يحتمي بها من المستهزئين؛ بل قدمت له ثلاثية النجاة: التسبيح، والسجود، واستمرار العبادة.

كأنها تقول لكل قلب أرهقه كلام الناس:

لن تستطيع أن تمنع الألسنة كلها، ولكنك تستطيع أن تمنعها من احتلال قلبك. لا تدخل في كل معركة، ولا تجعل صورتك في أعين الخلق أعز عليك من مقامك عند الله. إذا ضاق صدرك، فلا تبحث عن الاتساع في التصفيق؛ ابحث عنه في السجود.

إن الحجر قد يحمي الجسد من الريح، لكنه لا يحمي الروح من الخوف. والمال قد يشتري الأبواب، لكنه لا يشتري الأمن. أما من عرف ربه، وحمل القرآن، وأخلص العبادة، فقد دخل حصناً لا تراه الأبصار، ولكنه أثبت من الجبال.

وهذا هو النداء الأخير الذي تتركه السورة في أعماقنا:

لا تكن حجراً قاسياً أمام آيات الله، ولا تتخذ من الحجر إلهاً خفياً لوهم الأمان. كن عبداً؛ فالعبد الذي يحفظه الله أقوى من أمة تنحت الجبال.

وامض إلى اليقين ساجداً؛ فإن الطريق الذي بدأ بك من طين لن ينتهي بك إلى تراب، بل إلى وقوف بين يدي الله، حيث لا يبقى من بيوت العمر إلا ما بنيته في قلبك من إيمان، وما رفعته في آخرتك من عمل.

وبهذا اكتملت — بحمد الله — الرحلة التدرجية في آيات سورة الحجر كلها، من الآية الأولى إلى الآية التاسعة والتسعين.